الجمهوريّة الجزائريّة الدّيمقراطيّة الشّعبيّة

وزارة التّعليم العالي و البحث العلميّ

جامعة باجي مختارعنابة

BADJI MOKHTAR -ANNABA UNIVERSITY
UNIVERSITE BADJI MOKHTAR-ANNABA

كليّة الآداب و العلوم الإنسانيّة و الاجتماعيّة

قسم التاريخ

مقياس تاريخ الجزائر الثقافي الحديث و المعاصر

السنة الثانية ليسانس

إعداد : الأستاذ العياشي روابحي

السنة الجامعية 2016-2017

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المختصرات المستعملة

1- باللغة العربيـــة:

- د.م.ج: ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.
- د.ت: دون تاريخ.
- ش.و.ن.ت: الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر.
- م.و.ك: المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر.

2- باللغة الفرنسيـة:

- A.O.M. : Archives d'Outre-mer d'Aix-en-Provence, France.
- A.N.E.P : Agence Nationale des Éditions et Publications.
- E.N.A.L : Entreprise Nationale du Livre.
- I.S.H.C.T : Institut Supérieur d'Histoire Contemporaine de la Tunisie.
- P.U.F : Presses Universitaires de France.
- O.P.U : Office des Publications Universitaires, Algérie.
- R.A : Revue Africaine.
- S.N.E.D : Société Nationale d'Éditions et Distribution.
- S.D : Sans date.

مقدمة

يغطي هذا البحث مقياس تاريخ الجزائر الثقافي الحديث و المعاصر، و هو موجه أساسا إلى طلبة السنة الثانية من قسم التاريخ، و يشتمل على إيجاز واف لمظاهر الثقافة المختلفة خلال الفترة الحديثة و المعاصرة من تاريخ الجزائر. و يتوخى تعريف الطالب بالمخزون الثقافي الجزائري و أهم الفاعلين الثقافيين خلال الفترتين المذكورتين لأنه يتضمن موضوعات و تراجم لبعض العبقريين و أرباب القرائح من مشاهير الجزائريين خلال هذين العهدين.

و قد قسمت هذا العمل إلى مدخل و جزئين، و كان من الضروري التمهيد لدراسة هذا المقياس بمدخل تحدثت فيه باختصار عن تاريخ الجزائر الثقافي منذ أقدم العصور إلى غاية العهد الإسلامي لتمكين الطالب من الاطلاع و لو بالقدر اليسير على جوانب الثقافة خلال تلك الفترة البعيدة من تاريخ الجزائر.

و قد خصصت الجزء الأول من هذا البحث، لدراسة تاريخ الجزائر الثقافي خلال العهد العثماني، و افتتحته بالتطرق إلى تراث القرن الخامس عشر باعتباره التركة التي ورثها العهد العثماني عن العهود الإسلامية السابقة. و تعرضت فيه إلى المؤثرات تراث في الحياة الثقافية و التي لخصتها في الاضطرابات و القلاقل السياسية، و الهجرة الأندلسية ثم ظهور عقيدة المرابط و انتشار التصوف. كما تطرقت فيه إلى العلماء و الأمراء و العلاقة بينهما، ثم تحدثت عن الحياة العلمية و الانتاج الثقافي الذي كان سائدا في الجزائر خلال تلك الفترة.

بعد ذلك انتقلت للحديث عن المؤسسات الثقافية التي عرفتها الجزائر خلال العهد العثماني، و التي تمثلت في المساجد و الزوايا و المدارس و المعاهد العليا و المكتبات. و قبل التطرق إلى ذلك كنت قد سلطت الضوء على الأوقاف باعتبارها أكبر مؤسسة كانت تمول هذه المؤسسات الثقافية. أما الموضوع الثالث الذي عالجته في هذا الجزء هو ظاهرة التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني، و قد درست فيه الطرق الصوفية و موقف العثمانيين منها، و فيه تحدثت عن الطريقة الشاذلية، و الطريقة الطيبية، و الطريقة الحنصالية، و الطريقة الكرزازلية الأحمدية، و الطريقة الشيخية، و الطريقة

القادرية، و الطريقة الرحمانية، و الطريقة التيجانية، و الطريقة الدرقاوية. و سلطت الضوء كذلك على سلوك بعض المتصوفة و أدعياء الولاية الذين كانوا يدعون دعوات ضالة، و بعض المتصوفة الخيرين الذين كانوا يدعون الناس إلى الخير و الصلاح. و في نهاية هذا الجزء حاولت الإحاطة بظاهرة الأولياء و الكرامات خلال العهد العثماني، و هي الظاهرة التي ازدادت خلاله قوة و عمقا و انتشارا، و كانت أيضا أبعد غورا و أقوى تأثيرا على عقول الناس.

أما الجزء الثاني من هذه الدراسة فقد درست فيه تاريخ الجزائر الثقافي خلال الفترة الاستعمارية الفرنسية، و قد افتتحت الكلام فيه عن الاستعمار الفرنسي للجزائر و الغزو الثقافي من خلال نشر الجهل و الأمية و الفرنسة و التنصير. ثم تعرضت بعد ذلك إلى التعليم و العلماء، و قد حاولت دراسة هذا القطاع الحيوي كنموذج للحياة الثقافية بالجزائر خلال الحقبة الكولونيالية الفرنسية لأن البحث في هذا الجانب واسع و ثري و يطول فيه الحديث عن قطاعات و مؤسسات أخرى كالصحافة، و المسرح، و الموسيقى، و الرسم، و الترجمة، و المطابع، و الفنون، و الآثار، و السينما، و الاذاعة و نحو ذلك.

و في معرض الحديث عن التعليم و العلماء تطرقت إلى السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر و مقاصدها، و الجدل الذي أثارته، و المسارات التي أخذتها، و التي كانت تتلخص في التعليم الحكومي الرسمي و التعليم الوطني الحر، و خصائص و تشعبات كل منهما. كما عرفت بكبار المعلمين الذين تقلدوا مهام التدريس، و الذين أنجبتهم هذه التجربة التعليمية، و الضغوط المادية و المعنوية التي مارستها الإدارة الاستعمارية الفرنسية عليهم و على العلماء إجمالا، و شعورهم بالضيم و الجور، و نتيجة لذلك ضاقت بهم أرض الجزائر بما رحبت و فضلوا الهجرة و الارتحال إلى الخارج، و تفرقوا في بلاد المشرق العربي و مغربه للفكاك من ممارسات المستعمر المقيتة و سياسته الخرقاء، و عليه أفردت عنصرا مستقلا يتناول هذا الموضوع تحت عنوان " هجرة العلماء".

و قد اختتمت الحديث في هذا الجزء عن التعليم و حركة التأليف التي كانت نشيطة و مرادفة لحركة التعليم خلال الحقبة الكولونيالية من خلال التعريف ببعض المؤلفين الجزائريين الذين نبغوا في هذا المجال، و تركوا بصماتهم في الحقل الثقافي الجزائري خلال تلك الفترة.

و إنني لا أكشف سرا إن قلت لقد واجهتني صعوبات جمة أثناء إنجاز هذا العمل المتواضع تتعلق أساسا بتقديم الموضوعات المقررة وفقا للمنهاج الجامعي و ضرورة الالتزام به، ذلك أن الباحث في حقل تاريخ الجزائر الثقافي لا يشكو في الواقع من قلة المعلومات، و من قلة المصادر بل من كثرتها و تناثرها. و لعل المعلومات الغزيرة التي ضمنها الأستاذ أبو القاسم سعد الله في موسوعته الشهيرة " تاريخ الجزائر الثقافي 10 هـ –14 هـ/ 16 م –20 م " و غيرها من الدراسات الأخرى التي كتبها حول هذا الموضوع لخير دليل على كثرة مصادر هذا المقياس و غزارة معلوماته. و قد تطلب مني ذلك الاختصار في تقديم تلك الموضوعات، و الذي أتمنى ألا يكون اختصارا مخلا. و أي كان الأمر فقد حاولت بكل ما أتيت من قوة أن أعطي هذا العمل حقه من الدراسة، حتى تكون له فائدة بالنسبة للمخاطبين به و هم الطلبة الجامعيين بقسم التاريخ و لاسيما طلبة السنة الثانية كما قدمت.

مدخل لتاريخ الجزائر الثقافي من العهود القديمة إلى العهد الإسلامي:

I- ثقافة البربر القديمة

1- اللغة

2- المعتقد

3- الفن

II- الحالة الثقافية للبربر في العهد الفينيقي

III- الحالة الثقافية للبربر في العهد الروماني

1- يوبا الثاني

2- أبوليوس المادوري

3- القديس أوغسطين

IV- الحالة الثقافية بالجزائر في العهد الاسلامي

مدخل لتاريخ الجزائر الثقافي من العهود القديمة إلى العهد الإسلامي:

يتضمن هذا المدخل لمحة موجزة عن تاريخ الجزائر الثقافي خلال العهدين القديم و الإسلامي، و فيه حديث مختصر عن ثقافة البربر القديمة من لغة و خط و معتقد و فن، كما تضمن موجز عن حالتهم الثقافية أيام الفينيقيين، و علاقة التأثير و التأثر التي نتجت عن اتصال الفينيقيين بهم، ثم مختصر عن الحالة الثقافية للبربر في العهد الروماني، و بعض مشاهير الثقافة البربرية زمنئذ. و في نهاية هذا المدخل تمت الإشارة إلى الحالة الثقافية بالجزائر – المغرب الأوسط– خلال العهد الإسلامي من خلال نموذج الدولتين الرستمية و الحمادية.

I- ثقافة البربر القديمة

لقد سجل التاريخ للبربر حضارة مزدهرة ذات قاعدة ثقافية تجسدت في عدة مظاهر أبرزها اللغة و الخط، و المعتقد و الفن.

1- اللغة

لما كانت اللغة هي أساس التواصل بين الناس عبر مختلف الأزمنة و الحقب، فقد كانت للبربر لغة خاصة بهم. و خلال فترة الأربعينات من القرن الماضي، عمل الكثير من الباحثين اللغويين الفرنسيين و على رأسهم الباحث " شابو" « chabot » على جمع الكثير من النقوش الليبية بالشرق الجزائري و الغرب التونسي في محاولة منه لفك رموز هذه اللغة، و قد تمكن هذا الباحث من جمع أكثر من 1120 نقشا ليبيا، ثم قام بتصنيفها و تبويبها و أخرجها في شكل مجلد كبير، و قد لاحظ هذا الباحث وجود – ضمن هذه المجموعة الكبيرة– نحو 20 نقشا كتب بلغة مزدوجة (بونية ليبية و لاتينية ليبية).(1)

و قد دلت النقوش أن لغة البربر تتشكل من22 حرفا، و أن كتابتها تكون من اليمين إلى اليسار، و من اليسار إلى اليمين، و من أعلى إلى أسفل، و من أسفل إلى أعلى (2)

و عموما فإن هذه النقوش التي كتبت بها هذه اللغة هي نقوش تذكارية و جنائزية تتحدث عن مناقب الميت و أحواله الشخصية و مكانته الاجتماعية و حظوته. و قد عثر الدارسون بموقع الحفرة بقسنطينة في الشرق الجزائري على مجموعة من النقوش تدل على تولي أبناء ماسينيسا الحكم و هم مسيبسا، و غلوسة و مستنبعل[3]

---

[1] صالح بن نبيلي فركوس: الوجيز في تاريخ الثقافة الجزائرية من العهد الفينيقي إلى غاية الاستقلال (814ق.م –1962م)، دار المعارف للطباعة، الجزائر، 2015، ص 8.

[2] Mahfoud Kaddache : L'Algérie dans l'antiquité, S.N.E.D, Alger, Algérie, 1982, p 32.

[3] محمد الصغير غانم: معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2003، ص 116.

2- المعتقد

تشير القبور التي كان البربر يدفنون فيها موتاهم بكل عناية و دقة، أنهم كانوا يعتقدون بوجود حياة أخرى بعد الموت،[1] و كانوا يعبدون إلها يسمونه "أمون" غير أنهم كانوا يعتقدون أنه ليس لهذا الإله وجود مستقل بذاته، و إنما هو عبارة عن روح تبعث في بعض الكائنات و الكواكب و الظواهر الطبيعية مثل الشمس و القمر و البرق و الرعد و غيرها، لذلك كانوا يعبدونها و يرمزون للشمس بقرني الثور، و يتخذون لقرصها تمثالا يجسدونه على رأس صورة تيس، كما كانوا يعبدون الحيوانات و خاصة الثور و الكبش، و كانوا يعتقدون أيضا بوجود أرواح في بعض العناصر الطبيعية كالحجارة و الأشجار فيقدسونها و يتوسلون بها إلى قضاء حوائجهم التي عجزت عن قضائها قواتهم البشرية الضعيفة.[2]

3- الفن

كان للبربر حس فني راق، و يتضح ذلك بشكل جلي من خلال ما عثر عليه الباحثون من رسوم منقوشة على الصخور، و أواني فخارية مزينة، و مواد خزفية، و مواد الحلي الحديدية، و البرونزية و النحاسية، و أدوات الزينة و غيرها.[3]

و هكذا نرى أن الأمة البربرية لم تكن في عصر من عصور تاريخها خالية من مظاهر الثقافة و الحضارة، فاقدة لتلك الثروة الثقافية التي تجعل الشعب البربري حيا راقيا يعيش بروحه كما يعيش بجسمه.

II- الحالة الثقافية للبربر في العهد الفينيقي

[1] Mahfoud Kaddache :op.cit, p 37

[2] مبارك بن محمد الميلي: تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، الجزء الأول، تقديم و تصحيح محمد الميلي، م.و.ك، الجزائر، 1989، ص 121، 122.

[3] Mahfoud Kaddache : op.cit, p 32.

الفينيقيون شعب ينسب إلى وطنه فينيقيا، و هي عبارة عن كيان جغرافي يقع في منطقة الشام، يتميز بضيق مساحته و إطلاله على البحر الأبيض المتوسط، و يفصله عن بقية بلاد الشام جبل لبنان. و رغم أنهم أمة قليلة العدد إلا أن صيتهم ذاع في التاريخ القديم بسبب جلائل أعمالهم التي كانت كلها حسنات للبشرية عامة و للبربر خاصة، حيث ربطوا بين الأمم و الحضارات القديمة جسورا متينة، و نشروا بالتالي حضارات إنسانية بلغت مكانة متميزة ساهمت في نشر مختلف أصناف المعرفة و الثقافة.[1]

كان الفينيقيون أمة بحرية، حيث يعدون من أوائل الأمم التي ركبت البحر، و كانوا مسالمين و بعيدين بحكم طبيعتهم عن الحروب و الدسائس، و كانوا أيضا محبين للتجارة لذلك قيل عنهم أنهم شعب تجاري مسالم، ميال إلى الالتفات نحو البحر أكثر منه إلى اليابسة.[2]

و لما كانت المسافة التي تربط بين موطنهم الأصلي فينيقيا و المناطق التي يبحرون إليها ليجدوا فيها ضالتهم طويلة و شاقة و محفوفة بالمخاطر، فقد اهتدوا إلى تأسيس " أسكالات تجارية" عبر الطريق البحري للاستراحة و التموين و إصلاح السفن، و مع مرور الزمن تطورت هذه المراكز و أصبحت أسواقا تجارية منتشرة عبر الساحل المغاربي مثل " حضرموت" (سوسة)، و "عوتيقة" (بوشاطور) بتونس، و "هيبون" (بونة)، و " أجلجلي" (جيجل) و "صلداي" (بجاية) بالجزائر.[3]

[1] مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ص 128.

[2] Charles Picard : La vie Quotidienne à Carthage au temps d'Hanibal, Hachette, Pries, France, 1958, p 24.

[3] عبد الله شريط، محمد الميلي، الجزائر في مرآة التاريخ، طبع و نشر مكتبة البحث قسنطينة، الجزائر، 1965، ص 15.

و قد روعيت في إنشاء هذه المراكز عدة معايير تحقق النمو التجاري و الرخاء الاقتصادي منها ارتفاع نسبة الكثافة السكانية المجاورة لهذه المراكز، و ثراء المناطق الداخلية القريبة منها بالإنتاج الزراعي و غيرها.[1]

و الواقع أن الفينيقيين كانوا قد ترددوا على هذه المناطق منذ القرن الثاني عشر قبل الميلاد، و في عام 814 ق.م أسست أميرة صور عليسة Elissa مدينة قرطاجة التي نزحت إليها بعد خلافها مع أخيها الملك بيغماليون Pygmalion، و قد تطورت هذه المدينة بسرعة فائقة و عظم شأنها حتى أصبحت سيدة الحوض الغربي للبحر الأبيض المتوسط[2]، و بلغت شأوا عظيما خاصة خلال القرن الرابع قبل الميلاد، فأصبحت عاصمة الفينيقيين و معقل عزهم و حصن سيادتهم، و كان سكانها يسمون البونيقيين.[3]

و قد اندمج السكان البربر في الحضارة القرطاجية، و برز التأثير الفينيقي بشكل واضح في حياتهم اليومية. و لم يكن هذا التأثير يقتصر على الجانب المادي فحسب، و إنما طال أيضا الجانب الثقافي و الديني[4]، حيث أقبل البعض منهم على اللغة البونيقية فتعلمها، الأمر الذي ساعد على انتشارها بشكل لافت للانتباه، و ليس أدل على ذلك من أنه عثر على كتابات كتبت بهذه اللغة منقوشة على عدة أضرحة بكل من مدن قالمة ، قسنطينة، و ميلة بالشرق الجزائري. يضاف إلى ذلك أيضا أن أعيان البربر كانوا قد وطدوا علاقاتهم الثقافية مع قرطاجة، و قام الملك مسينيسا بإرسال إبنه إليها لأخذ العلم و التزود بثقافتها.[5]

---

[1] Abdelhamid Benachenhou : Connaissance du Maghreb. Notions d'ethnographie, d'histoire et de sociologie, preses des éditions populaires de l'armée nationale, Alger, Algérie, 1971, p 31.

[2] شافية شارن و آخرون: الاحتلال الاستيطاني و سياسة الرومنة، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص 11.

[3] عبد الله شريط، محمد الميلي: المرجع السابق، ص 16.

[4] Mahfoud kaddache : op.cit, p 45.

[5] صالح بن تبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 8.

لقد أثر الفينيقيون على البربر في مجال اللغة، و بالمقابل تأثرت اللغة الفينيقية بنظيرتها البربرية، و قد نتج عن هذا التأثير و التأثر ظهور لغة ثالثة هي اللغة البونيقية ألفت بها تآليف عديدة في مجال الفلاحة و الملاحة و الأسفار و نحوها، مثل رحلة حنون التي رصد فيها أخبار رحلته البحرية حول إفريقيا الغربية عام 525 ق.م، و وصل سواحل السنيغال، و غينيا و الكاميرون.[1]

و كذلك رحلة ماغون Magon الذي وصل سواحل إنجلترا، و ألف بهذه اللغة أيضا كتاب "ماغون في الفلاحة" الذي ترجمه اليونان و الرومان إلى لغتهم و اعتمدوا عليه بشكل مركزي خاصة أثناء عملية تنميتهم لمختلف النباتات بإفريقيا.[2]

و الحقيقة أن البونيقيين كتبوا الكثير من الكتب بهذه اللغة، غير أنها ضاعت بضياع ملكهم حينما أقدم الرومان على حرق قرطاج و تحطيم مدنيتها و إتلاف كل الثمرات الفكرية التي أنتجوها عام 146 ق.م.[3]

و لم تقتصر علاقة التأثير و التأثر بين الطرفين على الجانب اللغوي فحسب، و إنما مست أيضا الجانب الديني، حيث أقدم الفينيقيون على عبادة آلهة البربر و تقديس معتقداتهم و شعائرهم، فعبدوا إله البربر "أمون" لكن حسب أعرافهم و تقاليدهم التي اقتضت التحوير في اسمه ليصبح " بعل أمون"، و صنعوا تماثيل أخرى له غير تمثالي التيس و الكبش. و لم يتحرج البربر من هذه التحويرات، بل سارعوا إلى تقليدها و شادوا إجلالا و تكبيرا للإله " بعل أمون" تماثيل في عدة مدن لهم مثل قرطة، ميلة و قالمة. و عبدوا كذلك عدة آلهة فينيقية مثل الإله " استارتي" و الإله "جليست"، و الإله " بليدير" و معناه الرب العظيم، و قد بقيت هذه الألهة معبودة إلى فترة ما بعد الاحتلال الروماني للمنطقة.[4]

---

[1] Fernand Decret : Carthage ou l'Empire de la mer, Tours, France, 1977, pp 72,73.

[2] مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ص 136.

[3] أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، نشر دار الكتاب، الجزائر، 1963، ص 13.

[4] مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ص ص 167، 168.

و خلاصة القول أن الثقافة البربرية تأثرت إلى حد بعيد بالثقافة الفينيقية في الكتابة و اللغة و المعتقد لعدة قرون من الزمن، و هذا ما أكده الجغرافي و المؤرخ الفرنسي الأستاذ " غوتييه" « Gautier » حينما قال: "... أن التأثير الفينيقي في منطقة المغرب دام نحو ألف سنة، و لم يسجل لنا التاريخ سوى القرن الأخير من الوجود الفينيقي، أي القرن الذي أفل فيه نجم إمبراطورية قرطاج، أما القرون التسعة الأخرى فقد بقيت غامضة...".[1]

III- الحالة الثقافية للبربر في العهد الروماني

خاض القرطاجيون حروبا طاحنة ضد الرومان عرفت في التاريخ القديم بالحروب البونية الثلاثة: الحرب البونية الأولى (264ق.م- 241 ق.م)، و الحرب البونية الثانية (218 ق.م- 202 ق.م)، و الحرب البونية الثالثة (149 ق.م-146 ق.م). و قد انتصرت فيها روما و قضت على قرطاج عام 146 ق.م. و على إثر ذلك انتهجت سياسة توسعية عدوانية تمكنت عن طريقها من السيطرة على شعوب البحر الأبيض المتوسط.[2]

و في هذا السياق استولى الرومان على قرطاج و أطلقوا عليها اسم "مملكة الرومان الافريقية"، و في عام 46 ق.م أحكموا سيطرتهم على شرقي نوميديا و سموها إفريقيا الجديدة، أما موريطانيا الشرقية فقد بقيت تحافظ على استقلالها بأيدي أمراء من البربر آخرهم الملك بوكوس الثالث الذي قضى نحبه عام 33 ق.م. و تبعا لذلك تم إلحاقها بالمستعمرة الرومانية، و رغم المدة الطويلة التي قضاها الرومان بالمنطقة، إلا أنه استعصى عليهم إخضاعها بالكامل، حيث لم يتمكنوا من إحكام سيطرتهم على المناطق الصحراوية ما عدا في جهات قسنطينة. أما باقي المناطق فلم يكن لهم فيها إلا الجهات التلية المعروفة بموريطانيا القيصرية.[3]

---

[1] E.F.Gautier : Le passé de l'Afrique du Nord, Les siècles obscurs éditions Payot, Paris, France, 19, S.D. p 31.

[2] محمد البشير شنيتي: الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة 146 ق.م-40م)، م.و.ك، الجزائر، 1985، ص 45.

[3] عبد الله شريط، محمد الميلي: المرجع السابق، ص، ص 34، 35.

لم يتمكن الرومان من التأثير في ثقافة البربر و لغتهم و دينهم، لأن البربر كانوا دائما على خلاف معهم في الدين و ساخطين و ثائرين على سياستهم طيلة فترة سيطرتهم عليهم (146 ق.م-429م)، لأنهم كانوا يرون فيهم أمة مستعمرة و متسلطة حرمتهم من الفوائد الاقتصادية التي كانت تتميز بها أراضيهم[1]، و نتيجة لذلك لم يحدث التقارب و الاندماج بينهما في كل الجوانب و لاسيما في الجانب الديني حيث احتفظ البرابرة بخصائص ديانتهم المتميزة رغم سياسة الرومنة التي كانت تهدف أيضا إلى نشر الديانة الرومانية.[2]

و رغم ذلك فقد اشتهر من رجال البربر خلال الحقبة الرومانية علماء و حكماء و عظماء في مجال الدين و السياسة و الفلسفة و الأدب و التاريخ و الجغرافيا، و غيرها من العلوم الأخرى نذكر منهم:

1- يوبا الثاني

كان يوبا الثاني قد تربى في أحضان روما، و تشبع بثقافتها، حيث أخذه يوليوس قيصر و تبناه بعد وفاة والده عام 46 ق.م و أراد أن يجعله ستارا ينفذ من وراءه مقاصد روما الاستعمارية، فعينه ملكا على نوميديا [3]. و خلال مدة إقامته بروما تلقى يوبا الثاني مختلف العلوم و الفنون في معاهدها و مراكزها العلمية على يد أساتذة رومان و يونانيون، و تعلم اللغتين اللاتينية و الإغريقية و تضلع فيهما، كما فتن بالحضارة اليونانية و تذوق أدبها و فلسفتها و فنونها، و نتيجة لذلك أصبح من جهابذة العلم و الأدب. و قد اعترف له معاصروه بغزارة علمه و تبحره في مختلف العلوم و خاصة في مجال التاريخ و الأدب.[4]

[1] صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 12.

[2] Georges Andrien : L'Église de l'Afrique du Nord : (Algérie, Maroc), Paris, France, 1991, p 42

[3] عبد الله شريط، محمد الميلي: المرجع السابق، ص 36.

[4] صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 13.

ورث يوبا الثاني عن جده مكتبة ثرية بالكتب اليونانية و المخطوطات اللاتينية و الفينيقية، و ألف العديد من الكتب باللغة اليونانية، وصلتنا منها تسعة عناوين هي: التاريخ الروماني، علم آثار الرومان، بابيلون، أرابيكا، متشابهات، تاريخ المسرح، حول فساد اللغة، حول الرسم، و أخيرا كتابه الشهير الموسوم "ليبيا" « Lybyca » الذي يعد أهم ما كتب يوبا الثاني، إذ هو عبارة عن عمل موسوعي رصد فيه عدة أخبار تخص تاريخ و جغرافية بلده، و معلومات أخرى تتعلق بنباتها.[1]

2- أبوليوس المادوري

ولد أبوليوس بمدنية مادور عام 124م من أسرة ثرية و ذات جاه، أخذ تعليمه في البداية على يد أساتذة بلدته، غير أنه لم يكتف بما تلقى من علم فانتقل إلى قرطاج و أثينا باليونان و هناك تعلم الشعر و الموسيقى و الجدل، و ولع بالفلسفة الأفلاطونية التي لازمها طوال حياته.[2] بعد ذلك انتقل إلى روما و تعلم فيها اللغة اللاتينية، و كان في الوقت نفسه يمارس فيها مهنة المحاماة ليكسب قوته اليومي. كان أبوليوس محبا للسفر و حياة الترحال، فسافر إلى مدينة الإسكندرية المصرية عن طريق ليبيا. غير أنه سقط سقيما إثر وعكة صحية أصابته في الطريق و تحديدا في بلدة "أويا" الليبية، و هناك تزوج من إمرأة تدعى" إيميليا بودنتيلا"، رغم اعتراض أهلها على هذا الزواج، الذين رفعوا ضده دعوى قضائية ضده اتهموه فيها باستخدام السحر و الشعوذة من أجل الاستيلاء على قلبها. و لما عرضت القضية أمام المحكمة، دافع أبوليوس عن نفسه بقوة خاصة و أن له باعا طويلا في المحاماة. و تمكن من تبرئة ساحته و دحض كل التهم الموجهة له، و أثبت أمام هيئة المحكمة أن كل حجج خصومه ما هي إلا تبريرات واهية و سقيمة.[3]

---

[1] Mahfoud Kaddache : op.cit, pp 105, 106.

[2] محمد الطمار: الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، ش. و.ن.ت، الجزائر، 1983، ص 60.

[3] لوكيوس أبوليوس: الحمار الذهبي، ترجمة أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2001، ص ص 11، 12.

و الأصل أن المرافعة التي ألقاها أبوليوس أمام القضاة كانت في شكل خطاب عنيف جميل و جذاب وصلنا تحت عنوان " الدفاع" أو "السحر". و يعد هذا الخطاب في نظر المؤرخين من أطرف و أقدم الخطب التي كتبت باللغة اللاتينية، ليس فقط بسبب المناسبة التي قيل فيها، و إنما أيضا بسبب احتوائه على تفاصيل مشوقة عن الحياة اليومية في الأقاليم الرومانية المليئة بالخرافات و القصص الغريبة، كما ترك لنا أبوليوس أيضا مجموعة كبيرة من الخطب الحماسية التي تعالج موضوعات عديدة، و قد بوبت و صنفت تحت عنوان " باقة من الزهور".[1]

و الواقع أن أهم عمل اشتهر به أبوليوس هو رواية الحمار الذهبي (الميتامورفوس) أو "المتحول" التي ألفها عام 170م و التي تعد في نظر الباحثين أول رواية كتبت في تاريخ البشرية، و قد روى فيها قصة إنسان إسمه " لوسيوس" تشاء الأقدار أن يتحول إلى حمار، و لا يستطيع أن يعود إلى هيئته الآدمية إلا إذا أكل الورد، إلا أنه عسر عليه الحصول عليه، إذ كلما شرع في البحث عنه تصدت له عصابة منعته من ذلك. و لما بلغت أخباره مسامع " إزيس" إلهة المصريين القدامى تدخلت و أعادته إلى هيئته الآدمية. و قد سرد أبوليوس وقائع هذه الأحداث بأسلوب أنيق حاذق و فصيح، و ربما ذا دلالة رمزية كذلك فربما كان يرمز بهذا الحمار الذهبي إلى نفسه كإنسان نوميدي أراد الرومان أن يرومنوه و يسلخوه من جلده الشرقي و يلبس ثوب الحيوان أي يمارس ثقافة المستعمر الغالب، و قد يرمز بالإلهة إيزيس إلى ثقافة الشرق التي أراد الدفاع عنها في محيط معاد للشرق، و في كل الأحوال فربما كان يلجأ إلى الرمز و التلميح تلافيا لمحاكم التفتيش الرومانية.[2]

و أي كان الأمر فإنه من غير المستبعد أن يكون أبوليوس من خلال هذه الرواية قد حاول أن يدافع عن ثقافة الشرق لاسيما ثقافة المصريين القدامى التي حاول الرومان ردمها و

[1] محمد الطمار: المرجع السابق، ص 62.

[2] عثمان سعدي: عروبة الجزائر عبر التاريخ، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982، ص 76.

منع النوميديين من ممارستها. فهناك من المؤرخين المختصين في التاريخ القديم من يؤكد على بعض الملامح ذات الطابع المصري القديم كانت تطبع المجال الديني لدى قدماء البربر، و تلقى قبولا كبيرا لديهم.[1]

من المتصور أن أبوليوس كان أكثر أصالة و ارتباطا بوطنه و شعبه، و كان في الوقت نفسه مناهضا للوجود الروماني. و يتضح ذلك في كتاباته التي كان يشيد فيها بسلوكات و مواقف الفلاحين الذين كانوا يديرون ظهورهم لأوامر السلطة الحاكمة و يحرضون كلابهم ضد الغزاة حينما يقتربون من أكواخهم و ممتلكاتهم.[2]

كانت كتابات أبوليوس و مواقفه تحرج الإدارة الرومانية، لأنه كان يجاهر فيها بحبه و إعجابه الشديد بالزعيم النوميدي "سفاقس" رمز الأبوة و الولاء لقرطاج، و الذي أرّق مضاجع الرومان، و استشهد في مقارعة الجيوش الرومانية الغازية. و بالمقابل كان يتحاشى الحديث عن " ماسينيسا"، و يسخر من ملوك البربر الذين رموا إخوانهم المغاربة في حمأة العبودية الرومانية و لم يترجموا آمالهم في الحرية و الانعتاق، و لم يتجشموا عناء الانشغال بمطالبهم و تطلعاتهم.

كان أبوليوس ينظر إلى ملوك البربر الذين ناصبوا العداء للرومان على أنهم أهل شرف و أمانة، أما الملوك الذين ربطتهم بهم علاقة ود، فقد كانوا في نظره أهل ضعة و خيانة، و كان أيضا يعتز بوثنيته الشرقية، بل و يتبجح بها. و يمتعض من المسيحية التي دخلت المغرب غازية في إطار الاحتلال الروماني الظالم و الأرعن و نتيجة لذلك لم يتحمل الرومان تمرد هذا الكاتب النوميدي الذي قلب لهم ظهر المجن و زاغ عن نهجهم السياسي و تراثهم الفكري و الثقافي، فضايقوه و اضطهدوه و وجهوا له تهمة نشر السحر و الزندقة، غير أنه دافع عن

[1] رشيد الناظوري: المغرب الكبير، الجزء الأول، طبعة القاهرة، مصر، 1966، ص 286.

[2] محمد البشير شنيتي: التغيرات الاقتصادية و السياسية في بلاد المغرب أثناء الاحتلال الروماني و دورها في أحداث القرن الرابع الميلادي، م.و.ك، الجزائر، 1986، ص ص 231، 232.

مواقفه بشراسة و تهكم و سخر من جلاديه قائلا: " إن السحر هو الفن البديع الذي لا تموت آلهته أبدا..." [1]

3- القديس أوغسطين

ولد أوريليوس أوغسطينوس يوم 13 نوفمبر 354م في مدينة تاغست [2] من أب و ثني يدعى باتريك Patric و أم مسيحية تدعى مونيكا Monique، و كانت إمرأة صالحة صبرت كثيرا على وثنيته قبل أن يرى الإيمان قلبه [3]، انغمس في طلب العلم منذ نعومة أظافره بمسقط رأسه، ثم ارتحل إلى قرطاج لدراسة البلاغة و البيان، بعدها سافر إلى روما لإنهاء مشواره العلمي [4].

و لما استقر بمدينة ميلانو قام بإنشاء مدرسة للبيان، ثم اجتاز امتحان الأستاذية بنجاح، فشغل منصب أستاذ البلاغة هناك. و بعد وفاة والده التحقت به أمه التي كانت تشجعه دائما على ترك حياة الدعة و الملذات، و تحدثه على اعتناق المسيحية، و نتيجة لذلك كان كثير التردد و الاستماع لمواعظ القديس أمبواز Saint Amboise فاعتنق المسيحية بصفة رسمية، و تم تعميده في24 أفريل387م عن عمر ناهز الثانية و الثلاثين [5].

بعد ذلك عاد أوغسطين إلى مسقط رأسه لخدمة وطنه، فاستقر في تاغست لمدة ثلاثة سنوات، و في عام 391م أسند له منصب قس « Prêtre »، بأبرشية مدينة

---

[1] عثمان سعدي: المرجع السابق، ص ص 75، 76.

[2] Pierre Courcelle : Recherches sur les Confessions de Saint Augustin, E. de Boccard Éditeur, Paris, France, 1950, p 49

[3] Louis Andre Delastre : Sainte Monique mère De Saint Augustin, Imprimerie Du Sud Est, Lyon, France, 1960, P 48.

[4] Michel Pellegrino : Les Confessions De Saint Augustin, Éditions Alasatia, Paris, France, 1960, P 131.

[5] محمد العربي عقون: " من أعلام المغرب القديم: القديس أوغسطين (تاغست 354 – هيبون 430)"، الحوار الفكري، مجلة فكرية محكمة تصدر دوريا عن مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية، جامعة منتوري، قسنطينة، الجزائر، العدد 03، عام 2002، ص 121.

هيبون.[1] و لما كان بارعا في البلاغة اللغوية و تسخير أدواتها في الخطاب، فقد أثر في مستمعيه منذ خطبه الأولى، فذاع صيته و علا كعبه و أقبل عليه المؤمنون من كل الجهات،[2] و نتيجة لذلك رقيي إلى رتبة دينية أعلى هي رتبة أسقف Évêque أبرشية هيبون.[3]

و في تلك الأثناء كانت الحركة الدوناتية قد انفضت من حول الكنيسة الرسمية و سيطرت على المنطقة، لذلك عمل أوغسطين على إرجاع وحدة الكنيسة و محاربة هذه الحركة الضالة، فانتهج مع زعمائها أسلوب الحوار و الاقناع، و يتضح ذلك من خلال إحدى رسائله التي ورد فيها: " أنه من الواجب إحكام العقل و الاقناع في كل عمل، و أن الكفاح يجب أن يكون بالمناقشة و الكلمة الطيبة".[4] و لهذا الغرض أشرف على إعداد ندوة قرطاج عام 411م بمساعدة السلطة الرومانية التي دعت لها نحو 600 رجل دين من دوناتيين و كاثوليك ليتباحثوا نقاط الخلاف القائم بينهما، و قد اسفرت هذه الندوة على انتصار أوغسطين على خصومه، و اتهمتهم هذه الندوة بالبدعة و الضلالة و نظرت إليهم على أنهم خوارج انحرفوا و حادوا عن جادة الصواب، فقررت محاربتهم و تفريق جموعهم.[5]

و قد بنى أوغسطين فكرة اضطهاده لهذه الحركة على عبارة كان يرددها المسيح عليه السلام مؤداها: " إدفعوهم إلى دين الله دفعا"، لذلك شرّع مبدأ " الإرهاب المجدي" لإجبار

---

[1] Mahfoud Kaddache : op.cit, p 181.
[2] Louis Bertrand : Saint Augustin, Édition Fayard, Paris, France, 1913, P 371.
[3] Mahfoud Kaddache : op.cit, P 181.
[4] Henri Marron : Saint Augustin Et L'augustinisme, Édition Le Seuil, Paris, France, 1955, P 68.
[5] أبو عمران الشيخ : " أوغسطين العنابي و مقاومة الحركة الدوناتية"، الأصالة مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، عدد 34، 35 عام 1976، ص ص 173، 175.

أهل البدع و الضلالة على الرجوع إلى الطريق الديني القويم، فسلط ضدهم عقوبات فظيعة.[1]

بماذا نفسر موقف أوغسطين المعادي للحركة الدوناتية المتحالفة مع الفلاحين الأفارقة البسطاء المسحوقين من أبناء جلدته الذين كانوا يواجهون شتى أنواع المظالم و تسلط عليهم الإدارة الرومانية أبشع أنواع المغارم، و ينالهم من الخطب و ضروب الهوان ما لا يمكن وصفه و تصوره؟ بماذا نفسر هذا الموقف المتطرف؟ هل هذا الموقف ينطوي عن رعونة و سوء تقدير للعاقبة؟ ألم يتناقض مع مبادئ المسيحية السمحاء التي تدعو إلى الصفح و الحب و السلام؟ حقا إنه موقف يدعو إلى كثير من الاستغراب، فقد كان حريا بالقديس أوغسطين أن يقف موقفا مرنا يراعي فيه انتمائه الإفريقي و عقيدته المسيحية.

كانت لأوغسطين أفكار دينية و سياسية و مواقف مختلفة تتضح بشكل واضح في أعماله الفكرية التي جمعت في أربعة عشر مجلدا. و إذا كانت معظمها عبارة عن خطب و رسائل، فقد ضاع جزء هام منها و لم يصلنا إلا النزر اليسير المقدر بنحو 270 خطبة ذات أهمية قصوى، كما أن مواعظه بلغت 500 موعظة تم نشرها من طرف الدون مارين Don Marin عام 1930م بمناسبة العيد المئوي الخامس عشر للقديس أوغسطين تحت عنوان "أمشاج أوغسطينية".[2]

و لعل أشهر ما كتبه أوغسطين على الإطلاق هما كتابا: مدينة الله و الاعترافات، فالأول ألفه ليستدل به على الوجود الإلهي و الحكمة الالهية و دحض الوثنية و من

[1] محمد العربي عقون: المقال السابق، ص 129.

[2] محمد العربي عقون: المقال السابق، ص 127.

مفاسدها، أما الثاني فقد روى فيه خطاياه و تقواه و ورعه، فهو قصة نفس بلغت أعلى درجات الإيمان.[1]

كانت أيام أوغسطين الأخيرة حزينة بسبب غزو الوندال المتبربرين لإفريقيا، و لم تنج مدينته هيبون من همجيتهم حينما أطبقوا حصارهم عليها، ففضل أوغسطين على غير عادة الوجهاء و علية القوم التخندق إلى جانب شعبه في الذود على حياض مدينته، غير أن القدر جنبه رؤيتها تتداعى و تنهار تحت أقدامهم، إذ قضى نحبه في الثامن و العشرين من أغسطس من عام 430م.[2] و بهذا نلاحظ أن أوغسطين كان رجل دين و فكر و علم فهو يعد بحق جزء من التراث الثقافي المشترك للإنسانية برمتها.

هذه هي نماذج لبعض الشخصيات الثقافية التي نبغت من البربر في السياسة و العلوم و الآداب و الفنون و الدين أيام الاحتلال الروماني لهم، و قد عرفنا أنه كان منهم المثقف المترومن و المثقف غير المترومن. و لما سقطت حكومة روما أحكم الوندال قبضتهم على البلاد فكثرت الاضطرابات و النوائب. و كان من الطبيعي أن يزول ذلك الازدهار و يتقلص ظل الثقافة، و لم ينتفع البربري من استعمار الوندال في شيء لأنهم كانوا أهل بداوة، و لم يكونوا أهل حضارة حيث عاملوا السكان بفظاظة و وحشية، كانت خير معين لهم على إيقاظ وعيهم، فثاروا ثورة عارمة كسرت العبودية التي فرضوها عليهم و دمغتهم. و في تلك الأثناء وقع حادث كان له أثر خطير في مجرى التاريخ، ذلك هو مبعث نبي الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم في جزيرة العرب، و نزول القرآن الكريم و انتشار الإسلام و قيام المسلمين بالفتوحات و دخولهم إلى هذه الأرض لينقذوها من هذا الاستعمار المقيت و

[1] حفناوي بعلي: " مدخل في إشكالية الأدب اللاتيني الأفريكاني، دراسة مقارنة في التأثر و التأثير"، التواصل مجلة تصدرها جامعة باجي مختار عنابة، الجزائر، العدد 4، عام 1999، ص 193.

[2] محمد العربي عقون: المقال السابق، ص 127.

ينشرون عقيدتهم السمحاء التي تأمر بالتقوى و العدل و الإخاء، و يشملون العلم و الثقافة الدينية و الدنيوية برعايتهم.

IV- الحالة الثقافية بالجزائر في العهد الاسلامي

الواقع أن الحديث عن الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد الإسلامي أوسع بكثير من هذه السطور التي نعرض لها، و ما دام غرضنا هو إعطاء لمحة موجزة عن هذا الموضوع، فلا نريد أن نثقل كاهل هذه الدراسة بالتوسع في تفاصيل الفتح الإسلامي للمنطقة، و الرصد الدقيق لسائر الملامح الثقافية التي ميزت هذا العهد، لذا سنوجز الحديث عن هذا الجانب، و التطرق للحالة الثقافية للرستميين و الحماديين لنقدمهما كنموذجين للوضع الثقافي الذي ساد خلال هذا العهد.

فخلال عام 27 هـ/647م أمر الخليفة عثمان بن عفان ــرضي الله عنهــ عامله على مصر و أخاه من الرضاع عبد الله بن أبي سرح بالسير إلى إفريقية بهدف فتحها، فقصدها على رأس 20.000 من الفاتحين. و لما نزل الجيش الإسلامي بسبيطلة جنوب غربي القيروان تصدى له جرجير أحد عمال الروم بـ 120.000 من الروم و البربر الذي قتل بضربة من يد عبد الله بن الزبير، و هزم جنده و ولوا الأدبار مذمومين مدحورين، و سيطر المسلمون على عاصمته سبيطلة، و غنموا فيها غنائم كثيرة، ثم تقدموا إلى قفصة و قصر الأجم، و صالحوا الروم بعد أن أخذوا منهم جزية و عادوا إلى مصر.[1]

و في عام 45هـ/666م أرسل معاوية بن أبي سفيان والى مصر معاوية بن حديج إلى بلاد المغرب، فانتصر و فتح بعض المناطق الساحلية، ثم جاء عقبة بن نافع عام 50 هـ/670م و ابتنى القيروان،[2] و فتح مناطق واسعة و شتت شمل البربر الباغين، و أثخن فيهم

[1] عبد العزيز الثعالبي: تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى غاية نهاية الدولة الأغلبية، جمع و تحقيق أحمد بن ميلاد و محمد إدريس، تقديم و مراجعة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992، ص 33.

[2] Charles-André Julien : Histoire de l'Afrique du Nord : Tunisie, Algérie, Maroc, de la Conquête Arabe à 1830, SNED, Alger, Algérie, 1978, p 16.

حتى أذعنوا، غير أنه قتل غدرا من قبل جند كسيلة عام 67 هـ/683م، و عندما استقرت الأحوال لأمير المؤمنين عبد الله بن مروان، اتصل بزهير بن قيس عام 68 هـ/ 676م و زوده بالمدد و قتل كسيلة ، ثم رجع إلى المشرق، غير أنه توفي في طريقه ببرقة.[1]

و في عام 77 هـ/696م دخل حسان بن النعمان إفريقية، و كان الأفارقة غضابا لما نزل بهم من قتل زعيمهم كسيلة، لكنهم كانوا يكظمون غضبهم و يخفون موجدتهم و سيف زهير بن قيس مسلط على رقابهم. بيد أنهم لم يتمهلوا حتى توثب فيهم الميل للانتقام لاسيما و أن نفسيتهم كانت ضعيفة مجبولة على التقلقل و عدم الرضا بالحكم الأجنبي، و الأهم من هذا كله أنهم كانوا حديثي العهد بالفتح الإسلامي فألتفوا حول زعامة الكاهنة التي توجست خيفة من الفاتحين و اعتقدت أنهم جاءوا ليأكلوا أموال البربر بالباطل، و يعيثون فسادا في أرضهم و يأخذون المدن و الذهب و الفضة، و كل ما ملكت أياديهم، و قد فاتها أن مقاصدهم أسنى مما تتوهم. لقد ناوشت الكاهنة الفاتحين و هدمت العمران و حرقت الغابات و الأحراش، و أفضت مواجهتها لهم إلى انكسارها و مقتلها عام 84 هـ/ 702م.[2]

و لما رأى البربر أن الفاتحين المسلمين يختلفون عن الغزاة الأقدمين أقبلوا على الإسلام و دخلوا في دين الله أفواجا، و أرسل لهم الخلفاء من يفقههم في أمور دينهم، و يعلمهم العربية حتى صاروا من أشد الناس إخلاصا له.

و في عام 160هـ/ 776م أسس الإمام عبد الرحمان بن رستم الدولة الرستمية، و اتخذ من تيهرت عاصمة لها. و قد اعتنى الرستميون بالحركة الثقافية لأن أئمتهم كانوا علماء و أدباء قبل أن يكونوا رجال سياسة. و يكفي للتدليل على ذلك أن مؤسس دولتهم عبد الرحمان بن رستم كان عالما و مفسرا. و قد عرفت الحركة العلمية بتيهرت نشاطا كبيرا أيام

[1] عبد الله شريط، محمد الميلي: المرجع السابق، ص 55.

[2] حسن حسيني عبد الوهاب: خلاصة تاريخ تونس، تقديم و تحقيق حمادي الساحلي، دار الجنوب للنشر، تونس 2001، ص ص 45، 46.

هذه الدولة، حيث كانت ميدانا لأهل المذاهب و النحل الدينية و الفكرية من خوارج و معتزلة و نحوهما، و اشتهر عدة أعلام في عهدهم منهم الشيخ أبو سهل العارف بأصول و قواعد اللغتين العربية و البربرية و أكبر المؤلفين باللغة البربرية. و يهود بن قريش التاهرتي العليم بالعربية و البربرية و العبرانية و الأرمينية و الفارسية، و المهتم كذلك بالبحث المقارن في اللغات، و ابن الصغير صاحب كتاب تاريخ الرستميين، و الأديب و كبير الشعراء بكر بن حماد التاهرتي الذي تزعم حركة الزهد في أدب المغرب العربي كما تزعمها أبو العتاهية في مشرقه، و غيرهم من العلماء و الأدباء و الفقهاء و الزهاد.[1]

و في عام 405 هـ/1014م أسس الحماديون دولتهم، و قد عمرت ردحا معتبرا من الزمن قدر بقرن و تسعة و ثلاثين عاما، قاومت خلالها صروف الدهر و فرضت هيبتها على التاريخ، و مر تاريخها بمرحلتين هامتين هما: مرحلة قلعة بني حماد (1014م–1067) و مرحلة بجاية (1067م–1153م). و كان عهد الحماديين بحق عهد إنشاء و ترقية و ازدهار و نماء في الحقل الثقافي، ذلك أن التسامح الديني الذي ساد في عهدها هو الذي حرر الفكر و دفعه إلى الخلق و الإبداع.[2] فقد عاشت في بجاية الكثير من الملل و النحل و الطوائف المسيحية ناهيك عن وفود اللاجئين من الأندلس.[3]

يكفي التذكير بأن الوسط العلمي و الثقافي للدولة الحمادية هو الذي أنجب العديد من العلماء مثل العالم و الشاعر محمد بن حماد الذي كتب عدة قصائد في وصف عمران الحماديين و مآثرهم و مناقبهم، و المحدث الكبير أبو بكر بن يحي الوهراني المتوفى عام 430هـ، والعالم بأصول القانون أحمد الداودي التلمساني صاحب التآليف الغزيرة منها كتاب الواعي في الفقه، و شرح الموطأ، و الإيضاح في الرد على القدرية و الفقيه المحدث أبو عبد الله الملك

[1] عبد الله شريط، محمد الميلي: المرجع السابق، ص ص 63، 64.

[2] يحي بوعزيز: موضوعات و قضايا من تاريخ الجزائر و العرب، الجزء الأول، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2004، ص ص 35، 37.

[3] Mahfoud Kaddache : L'Algérie Médiévale, SNED, Alger, Algérie,1982 p 91.

البوني المتوفى حوالي عام 440 هـ، و هو أحد علماء و مشايخ بونة (عنابة)، والعالم النحرير يوسف الورقلاني (500م – 570م) المتبحر في العلوم النقلية و العقلية، و صاحب المؤلفات العديدة كتفسير القرآن، و العدل و الإنصاف في أصول الفقه، و مروج الذهب في الفلسفة، و الدليل لأهل العقول و غيرها.[1]

لقد كانت قلعة بني حماد منطقة استقطاب و جذب للعلماء من مختلف الأمصار، هاجروا إليها بعد ما ضاقت بهم بلدانهم، فجاؤوها من القيروان والحجاز و العراق و الأندلس و صقلية و بلاد الشام و مصر. و كان من الطبيعي جدا أن تستفيد الحياة الثقافية من علمهم و ثقافتهم. و الواقع أن التراجم التي أثبتها أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني المتوفى عام 704 هـ / 1304م في كتابه الموسوم "عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" لمشاهير و علماء و صلحاء و زهاد بجاية و منطقتها الأصلاء منهم و الوافدين إليها من بلاد الأندلس أو المشرق العربي، و عددهم مائة و تسعة و أربعين ترجمة تعد بحق أقوى دليل على ذلك الازدهار الثقافي الذي عرفته بجاية و منطقتها في تلك الحقبة التاريخية، لقد كان بحق أثرا علميا نفيسا يكشف لنا عن الازدهار العلمي و الأدبي الذي ميز بجاية و الجزائر عهدئذ. و لا يختلف اثنان كذلك في أنه يعد مصدر أساسي لمؤرخي الحياة الثقافية و العقلية و الأدبية لبجاية و منطقتها، بل للجزائر برمتها في تلك الحقبة من الزمن.[2]

هذه نظرة عامة حول تاريخ الجزائر الثقافي خلال العهود القديمة، و فترة الحكم الإسلامي، و قد عرفنا أن الجزائر كانت خلال هذه العهود الطويلة حافلة بالنشاط الثقافي، و عرفت خلالها بروز الكثير من النشاط الثقافي و العلمي، و كذلك العديد من العلماء

[1] عبد الله شريط محمد الميلي: المرجع السابق، ص ص 70- 72.

[2] أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1771، ص ص 55- 302.

الذين كانوا أطواد زمانهم في سائر العلوم. و قد فضلنا التمهيد بهذه النظرة المختصرة حتى تكون لنا أرضية ننطلق منها لدراسة تاريخ الجزائر الثقافي خلال الفترتين الحديثة والمعاصرة.

الجزء الأول: تاريخ الجزائر الثقافي خلال الفترة الحديثة (الفترة العثمانية)

I- تراث القرن 15م

1- مؤثرات الحياة الثقافية

2- العلماء و الأمراء

3- الحياة العلمية و الإنتاج الثقافي

II- المؤسسات الثقافية

1- الأوقاف

2- المساجد

3- الزوايا

4- المدارس و المعاهد العليا

5- المكتبات

III- التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني

1- الطرق الصوفية و موقف العثمانيين منها

2- سلوك بعض المتصوفة

3- الأولياء و الكرامات

انضوت الجزائر تحت راية الحكم العثماني عام 1516م، و لسنا في حاجة إلى التذكير في هذا السياق بظروف إلحاق الجزائر بالخلافة العثمانية، و ما صاحبها من وهن الكيانات السياسية في المغرب الإسلامي الذي تزامن مع سقوط غرناطة عام 1492م آخر معاقل المسلمين ببلاد الأندلس و التحرشات المسيحية التي شنها الملوك الإسبان على بعض المدن الساحلية، و الموقف من وجود العثمانيين في الجزائر، و مراحل حكمهم في الجزائر، و علاقتهم بالسكان و نحو ذلك. و لو كانت هذه الدراسة دراسة سياسية لبسطنا الحديث فيها عن كل هذه المسائل. و لكن الهدف منها هو استجلاء الحياة الثقافية التي ميزت الجزائر خلال هذا العهد.

و الحقيقة أنه ليس من السهولة بمكان رصد كل الجوانب المتعلقة بالحياة الثقافية في هذه الدراسة المختصرة و المتواضعة، و إنما سنكتفي بالتطرق إلى أبرز الظواهر الثقافية التي سيطرت على المشهد الثقافي في هذا العهد. و الواقع أنه لا يمكن الحديث عن هذا الجانب إلا بالتعرف على المؤسسات الثقافية التي كانت قائمة حينئذ، و ظواهر أخرى كالتصوف و الدروشة و الدجل التي سادت كذلك خلال هذا العهد. و لكن قبل التطرق إلى كل هذه المسائل، نرى من الجائز أن نبسط الكلام على التراث الفكري و الثقافي الذي ميز الجزائر خلال القرن 15م، و هو تراث العهد الإسلامي الذي يعد في الواقع فاتحة للإنتاج الثقافي خلال العهد العثماني.

I- تراث القرن 15م

نود دراسة تراث القرن 15م من خلال تسليط الضوء على العوامل المؤثرة في الحياة الثقافية، و العلاقة التي كانت قائمة بين العلماء و الأمراء حينئذ، و أخيرا نتعرف على الحياة العلمية و الإنتاج الثقافي لتلك الفترة.

1- مؤثرات الحياة الثقافية

عاشت الجزائر خلال القرن 15م ظروفا استثنائية، كانت لها آثار واضحة على الحياة الثقافية، لعل أبرزها الاضطرابات السياسية و تقاطر الأندلسيين عليها. و وسط هذا المشهد المضطرب ظهرت عقيدة المرابط و انتشرت الزوايا و عم التصوف و المتصوفة، و في ما يلي نأتي على تفصيل كل هذه المسائل.

أ- الاضطرابات و القلاقل السياسية

لم تكن الحدود السياسية للجزائر ــ أو المغرب الأوسط كما كانت تسمى في قاموس العرب المسلمين ــ واضحة المعالم خلال القرن 15م، و إذا كان المغرب العربي حينئذ مقسم بين ثلاث إمارات: المرينية و الزيانية و الحفصية، فإنه من التجاوز القول أن المرينيين كانوا يحكمون سيطرتهم على بلاد المغرب الأقصى الحالية، و الزيانين يسيطرون على بلاد الجزائر الحالية، بينما احتفظ الحفصيون بالبلاد التونسية الحالية، ذلك أن أجزاء غير قليلة من الشرق الجزائري كانت منضوية تحت لواء الحفصيين، و بالمقابل كان الغرب الجزائري تحت نفوذ الزيانيين، أما الوسط فكان منطقة تماس و صراع بين القوتين الأمر الذي أدى إلى تفرق قبائله شذرا مذرا، و تشرذمهم إلى إمارات محلية تارة تتمسك بحيادها، و أخرى تنتصر للأقوى. و كانت حدود هذه الإمارات غير قارة تتغير ضيقا و اتساعا تبعا لقوة وضعف الجيوش، لذلك كانت الجيوش المرينية تصل في بعض الأحيان إلى تونس، و بالمقابل كانت الجيوش الحفصية تصل إلى تلمسان. و لم يقتصر هذا التطاحن عند هذا الحد، بل تجاوزه إلى صراع و تنافس ممجوج داخل الأسر الحاكمة، مما أدى إلى استشراء الفوضى و ارتخاء حبل

الأمن، الأمر الذي أدى بدوره إلى تكالب البرتغاليين و الإسبان على عدة ثغور مغاربية، و قد انتهى الأمر باحتلال بعض المدن الساحلية كدلس، جيجل، عنابة، بجاية و وهران. و أصبح لهؤلاء المسيحيين اليد الطولى في إدارة الشؤون الداخلية لكل إمارة من الإمارات الثلاثة، و الأخطر من هذا كله أن كل طرف من هذه الأطراف المتناحرة إقليميا أو عائليا كان يلجأ إلى هؤلاء الأجانب للاستقواء بهم ضد خصمه.[1]

و نتيجة لذلك هاجر بعض العلماء إلى الخارج مثل محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي وصفه أحد معاصريه بأنه " ليس له شبيه في البلدان، فيعلم التفسير و القرآن، و علم النحو و المعان، و علم البديع و البيان، و علم المنطق و البرهان". و قد ترك المغيلي تلمسان و نزح إلى إقليم توات جنوبا [2] الذي اتخذ منه مركزا لنشاطه الأدبي و نقطة إنطلاق لنشر الإسلام في السودان الغربي حيث انتقل إلى (غاو) و اتصل بسلطانها الأسقيا محمد الكبير الذي أكرمه و وجه له أسئلة و التمس منه الإجابة عليها وفقا لأحكام الشريعة الإسلامية.[3] و لذات الأسباب هاجر علماء آخرون إلى المشرق أين قضوا نحبهم هناك، منهم أبي الفضل محمد المشدادي البجائي، و أبو عصيدة البجائي، و أحمد بن يونس القسنطيني و غيرهم. أما الذين بقوا بالجزائر فقد أنزووا إلى حياة الزهد و التصوف و الابتعاد عن أدران الحياة الدنيا.[4]

و مهما يكن من أمر فإن الأوضاع السياسية المضطربة كانت لها آثار وخيمة على الحياة الثقافية للبلاد، لأن التطور الثقافي يكون دائما ملازما للاستقرار السياسي.

---

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (20-16م)، الجزء الأول، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982، ص ص 28-30.

[2] فرج محمود فرج: إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر الميلاديين، دراسة لأوضاع الإقليم السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية، مع تحقيق كتاب القول البسيط في أخبار تمنطيط لمحمد بن بابا حيدة، د.م.ج، الجزائر، 1988، ص 93.

[3] محمد بن عبد الكريم المغيلي: أسئلة الأسقيا و أجوبة المغيلي، تقديم و تحقيق عبد القادر زبادية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974،ص 9.

[4] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 32، 33.

ب- الهجرة الأندلسية

بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس عام 1492م، استقبلت المدن الساحلية الجزائرية أعدادا هائلة من الأندلسيين الذين تقاطروا عليها بشكل لافت للانتباه خاصة بعد فشل ثورة البشارات (1499م-1502) المناهضة لسياسة التضييق الممارسة ضدهم، حيث خير الذين شاركوا فيها من مسلمى غرناطة و منطقتها بين التنصير أو النفي.[1]

و في تلك الأثناء كان هؤلاء المسلمون قد استنجدوا بالأخوين خير الدين و عروج اللذان كانا يتصدان لتحرشات الإسبان على سواحل الجزائر، و قد أنقذ عروج ما تيسر له منهم [2] . و قد أثلج هذا الموقف صدورهم، فكتبوا رسالة إلى سليمان القانوني سلطان الدولة العثمانية أثنوا فيها على جهود خير الدين الذي خلصهم من كدر الكفرة المتمردين و نقلهم إلى أرض الإسلام الجزائر.[3]

و رغم قوة شكيمة القوات الإسبانية و قمعها لثوار جبال البشارات إلا أن ثورتهم بقيت مستمرة، و تجددت عام 1569م، الأمر الذي أجبر الملك (دون خوان) (Don juan) على عقد صلح معهم في 20 ماي 1570م سمح لهم بمقتضاه بمغادرة بلاد الأندلس و التوجه دون إبطاء إلى سواحل المغرب العربي و على رأسها الجزائر في 15 جوان 1570م.[4]

---

[1] Penella Juan : « le transfert des mariscos espagnols en Afrique du Nord », in Etudes sur les Moriscos Andalous en Tunisie, Publiées par M.de Epalza et R.Petit, Tunis, Tunisie, 1973, p 97.

[2] أحمد توفيق المدني: حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا 1422-1722، ش.و.ن.ت الجزائر، 1981، ص 167.

[3] عبد الجليل التميمي: " رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م"، المجلة التاريخية المغاربية، عدد 3، عام 1975، ص ص 45، 46.

[4] Fernand Braudel : La Méditerranée et le Monde Méditerranienéen à l'époque de Philoppe II, Tome 2, Colin, Paris, France, 1966, pp 364-367.

و الحقيقة أن هجرة الأندلسيين إلى الجزائر كانت قد بلغت ذروتها إثر قرارات الطرد الجماعية التي أصدرها الملك الإسباني فيليب الثالث عام 1609م، و ما نجم عنها من تدفق أعداد هائلة من الأندلسيين على الجزائر قدر بنحو 275 ألف مهاجر عام 1611م.[1]

و قد كانت لهجرة هذه الطائفة من المسلمين الأثر الكبير على المجتمع الجزائري في كل النواحي و خاصة النواحي الثقافية. و لم يكن هؤلاء النازحون ينحدرون من طبقة إجتماعية واحدة، إذ كانوا يختلفون في الثروة و الثقافة و الجاه و الحسب و النسب، ففيهم عامة الناس و علية القوم و أصحاب القلم، و أصحاب الثروة و فيهم كذلك الفقراء و المعدومين.[2]

و قد نقلوا عناصر جديدة إلى موطنهم الجديد الجزائر شملت العادات و الصناعات و الثقافة، و أحيوا مدنا كانت ميتة و طوى التاريخ صفحة مجدها مثل مدينة شرشال التي أعادوا بناءها كما أعادوا بناء مدن أخرى.[3] و كان أثرهم واضح في مجال التعليم حيث لم يكتفوا بطريقة تعليم القرآن القائمة على عنصر الحفظ فحسب، بل أضافوا إليها تعليم الحديث، و روايات القرآن و أنواع قراءاته. و بالموازاة مع ذلك اعتنت السلطة العثمانية بعلمائهم، و أسندت لهم وظيفة التدريس، و خصصت لهم رواتب شهرية ثابتة لقاء ذلك، حتى تصون كرامتهم و تنتشلهم من حمأة الفقر و البؤس الذي لحقهم إثر عمليات الطرد من موطنهم الأصلي إذ فقدوا أرزاقهم و كل ما ملكت أياديهم.[4]

---

[1] صالح عباد: الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2005، ص 19.

[2] André Raymond : Grandes Villes Arabes à l'époque Ottomane, la Bibliotheque Arabe Sindbad, Paris, France, 1985, p 104.

[3] الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي: وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجي و محمد الأخضر، الجزء الثاني، دار الغرب الإسلامي، طبعة ثانية، بيروت، لبنان، 1983، ص 34.

[4] محمد الطالبي: " الهجرة الأندلسية إلى إفريقيا أيام الحفصيين"، الأصالة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية الجزائر، العدد 26، عام 1975، ص ص 64، 70.

و قد برز كذلك أثرهم في مجال الخط و الموسيقى الأندلسية التي لا زالت حية إلى يومنا هذا.[1]

و لا يكتمل الحديث عن الهجرة الأندلسية إلى أرض الجزائر دون الإشارة إلى موقف علماء الجزائر من قضية الأندلسيين الذين هاجروا و تركوا بلادهم و حطوا عصا ترحالهم في بلاد المغرب، ثم ندموا على صنيعهم لأنهم لم يجدوا بها كما ذكر الونشريسي في معياره "... رفقا و لا يسرا و لا مرتفقا، و لا إلى التصرف في الأقطار أمنا لائقا... و أن هجرتهم لم تكن لله و رسوله، كما زعموا. و إنما كانت لدنيا يصيبونها عاجلا عند وصولهم، جارية على رفق أهوائهم. فلما لم يجدوها وفق أغراضهم صرحوا بذم دار الإسلام و شأنه، و شتم الذين كان سببا لهم في هذه الهجرة و سببه، و بمدح دار الكفر و أهله و الندم على مفارقته..." (2)

و هي القضية التي أثارت لغطا فقهيا كبيرا، عندما طرحت على فقهاء ذلك الزمان. و قد كان جواب الفقيه الونشريسي أن هجرة هؤلاء لم تكن للدين، و إنما كانت للدنيا، في حين أن هجرة المسلم من الأرض التي تنتشر فيها رائحة الكفر تعد واجبا شرعيا. أما محمد بن أبي جمعة الوهراني فقد قدم فتوى لا تتفق مع فتوى الونشريسي حيث أفتاهم بالمحافظة على دينهم و ممارسة شعائره خفية و إبطانه في القلب بل و التظاهر بالنصرانية إتقاء لشر الكفر.[3]

و يطول بنا الحديث إذا خضنا في تفاصيل هذه المسألة إذ لا تتسع هذه الصفحات لاستيعاب كل الجدل الذي أثارته، و خوفا من الإطالة التي قد تخرجنا عن الموضوع الذي

---

[1] صالح عباد: المرجع السابق، ص 19.

[2] عبد الكريم الماجري: هجرة الجزائريين و الطرابلسية والمغاربة الجاوونة إلى تونس (1937-1831). دراسة تاريخية لإشكالية الاستعمار و الهجرة و تشكل الجاليات المغاربية بتونس و خصوصياتها الاجتماعية و القانونية، الشركة التونسية للنشر و تنمية فنون الرسم، تونس، 2010، ص 66.

[3] أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق، ص ص 44، 45.

نروم دراسته نكتفي بما قدم، و نؤكد مرة أخرى أن الهجرة الأندلسية كان لها بالغ الأثر على المشهد الثقافي في الجزائر منذ أن وطأت أقدام هذه الطائفة أرض الجزائر.

ج- انتشار التصوف

يذكر بعض المؤرخين و على رأسهم (ف.بروديل) (F.Braudel) أن بلاد المغرب عرفت انتشار التصوف اعتبار عن القرن 15م، الذي يعد ظاهرة جديدة عن المجتمع الإسلامي المغربي الذي فضل الالتفاف حول " إكلريوس" الطرق الصوفية التي كانت في نظر هذا المؤرخ مظهرا من مظاهر التجديد للإسلام المغربي.[1] و بصرف النظر عن عدم دقة المقاربة التي ساقها مؤرخ البحر الأبيض المتوسط لاسيما حول الفترة التي ساد فيها التصوف الذي وصل بلاد المغرب في عهد الموحدين الذين انتصر بعض علمائهم لمذهب الإمام الغزالي، فإن منطقة إفريقيا الشمالية انطوت على نفسها فعلا اعتبارا من القرن 15م، و عرفت فيها الحضارة الإسلامية كسوفا مس مختلف مجالات العلوم الدينية و الدنيوية.[2]

و لم يكن هذا الوضع نتيجة الصدفة، بل كان يعود إلى وهن الدولة بسبب الفتن و ضعف أفق حكامها، و الانحلال الداخلي الذي تضاف إليه التحرشات الخارجية، فانتشرت الزوايا و بالغ الناس في الاعتقاد في شيوخها الذين ابتدعوا الحضرة الصوفية و الأوراد و نحوها لاصطياد العوام و بسطاء العقول.[3]

و مع مرور الوقت باشرت هذه الزوايا التي أقيمت في الأرياف عملية نشر الإسلام الصوفي في الريف و المدينة على حد سواء، و عبدت الطريق لانتشار الطرق الدينية، و حتى ينفذ الفكر الصوفي إلى أفئدة العامة و محدودي الثقافة أو عديمها، أذاع المتصوفة عن أنفسهم

---

[1] Fernand Braudel : op.cit, p 218.

[2] ألفريد بل: الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981، ص ص 401، 402.

[3] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 37.

إدعاءات تذهل عقول هذه الطائفة، و تجعل منهم عبيدا طائعين.[1] و هكذا فقد أتباعهم الإرادة، و أضحى الخضوع لإرادة الشيخ يحجب الخضوع لإرادة الله جل جلاله! [2]

يضاف إلى هذا، فقد توسع المتصوفة في مسألة التوكل على الله، الأمر الذي أفقد الإنسان حريته و اختياره، فتراجع مستوى العلوم و المعارف و الفنون،[3] و أصبحت المعرفة بسيطة و سطحية، و أغلق باب الاجتهاد كذلك، كما أن الزاوية التي حلت محل المدرسة و الجامع في التعليم و تلقين المعارف لم تباشر هذه المهمة على أحسن وجه حيث اقتصرت على تقديم النزر اليسير من العلم وفقا لطرائق و مناهج جافة و منفرة. و هكذا حل شيخ الزاوية أو مقدمها ــ و هو الزاهد الذي سيطرت على عقله الخرافةــ محل العالم المتنور في المدرسة و المسجد. و الثابت أن هذا الوضع أدى إلى تراجع مستوى التعليم، و الأخطر من هذا كله أن علماء المساجد و المدارس وجدوا أنفسهم مجبرين على تبسيط آرائهم و طرائقهم التعليمية حتى لا ينفض الطلبة من حولهم و ينتقلون إلى الزوايا، الأمر الذي ضاعف من انحطاط الحياة الفكرية.[4]

هكذا يتراءى لنا أن المشهد الثقافي في الجزائر خلال القرن 15م تجاذبته عدة عوامل أثرت في صنعه، و لعل أبرزها انتشار ظاهرة التصوف، لأن هذه الظاهرة سنجدها أكثر انتشارا و إغراقا خلال الفترة اللاحقة و نعني بذلك الفترة العثمانية برمتها.

2- العلماء و الأمراء

إن الذي يريد اقتفاء أثر العلماء و الأمراء و العلاقة بينهما، و النقاش الذي أثارته هذه العلاقة خلال القرن 15م، فما عليه إلا بالعودة إلى كتب الرحلات و التراجم و السير و

[1] Louis Rinn : Marabouts et Khouan, Librairie Éditeur, Alger, 1884, p 106.
[2] Depond et Capolani : Les Confréries Religieuses Musulmanes Alger, 1897,p 13.
[3] ألفريد بل: المرجع السابق، ص 409.
[4] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 37.

الأسفار.[1] و الواقع أن الأخبار المتعلقة بهذا الموضوع و المبسوطة في ثنايا هذه المصادر تقسم هؤلاء العلماء إلى قسمين: قسم فضل الابتعاد عن هؤلاء الأمراء و قسم آخر إختار التقرب منهم. و في ما يلي نسوق مثالا عن كل منهما، و يتعلق الأمر بأحمد بن يحي الونشريسي، و محمد بن عبد الكريم المغيلي.

أ- أحمد بن يحي الونشريسي (834 هـ – 914 هـ/1508م)

ولد أحمد بن يحي الونشريسي في الونشريس، ثم انتقل إلى تلمسان و أخذ العلم عن شيوخها، و أصبح فقيها ألمعيا و من كبار علماء و أئمة زمانه، كان يحقق بدقة في المسائل الفقهية بلسان عربي فصيح، و أن كل من يحضر دروسه النحوية يخيل إليه أن سيبويه لو كان حيا لأخذ قواعد النحو عنه. و للونشريسي كثير من المؤلفات اشتهر منها كتاب " المعيار المعرب و الجامع المغرب عن فتاوي علماء إفريقيا و الأندلس و المغرب"، الذي يعد من أهم و أشهر كتب الفتاوي و النوازل، حيث رصد فيه كل فتاوي فقهاء المغرب و الأندلس و إفريقيا المتقدمين و المتأخرين، كما ضمنه أيضا فتاويه الخاصة التي اشتهر بها.[2]

لا نود التوسع كثيرا في الإنتاج العلمي للونشريسي لأن الذي يهمنا في هذا السياق هو علاقته بالأمراء و رجال السلطة، فقد ذكر الونشريسي في معياره أن محمد المقري أستاذ ابن خلدون كان يقول مقولة شهيرة مؤداها أن " شر العلماء علماء السلاطين"، و قد ذكر الونشريسي هذه العبارة في كتابه لأنها كانت تتفق مع هواه، و تنسحب أيضا على العلاقة بين علماء و أمراء عصره لأنه كان يرى أن قيمة العالم تنقص و شوكته الأدبية تضمر بالتدرج كلما اقترب من السلطان أو الحاكم الذي تجده دائما يسخر العلماء لخدمته و الدعاية لشخصه و يأمرهم بالسكوت عن المناكر و المفاسد، و يكون ذلك على حساب مبادئ

[1] مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ص 492.

[2] صالح بن نبلي فركوس: المرجع السابق، ص ص 82، 83.

الدين التي تدعو إلى عدم الخشية في سبيله من أحد.[1] و بهذا يجوز لنا القول أن الونشريسي لم يكن من علماء البلاط حيث كان يفضل التخندق في المعسكر الذي ينادي بضرورة الابتعاد عن السلاطين و الأمراء.

و الحقيقة أن علاقة الجفاء و الفتور التي كانت تربطه بالحكام هي التي أدت إلى فتور صلته و روابطه بسلطان تلمسان الذي غضب منه عام 874 هـ، فضاقت به أرض تلمسان، و هي المدينة التي كان يتولى فيها الفتوى، كما نهبت داره و هددت حياته، ففر إلى المغرب للفكاك من المضايقات التي كانت تطاله، و استوطن مدينة فاس التي وجد فيها الأمن، و في سلطانها الاحترام و الاعتبار، و فيها انكب على التدريس و تعرف على علمائها و بالأساس علماء القرويين، و استفاد منهم كما استفاد من الكتب التي كانت تزخر بها هذه المدينة.[2]

ب- أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي المتوفى عام 909 هـ/ 1504م

قدمنا الحديث فيما مضى بشكل مختصر عن هذه الشخصية العلمية التي عاشت حتى موفى القرن التاسع للهجري و فاتحة القرن العاشرللهجرى (نهاية القرن 14م و بداية القرن 15م) في معرض كلامنا عن الاضرابات و القلاقل السياسية التي عرفتها الجزائر خلال القرن 15 و انعكاساتها عليه و على سائر علماء عصره، أما الآن فنتكلم عليه كأنموذج للعالم الذي فضل التقرب من الأمراء و أصحاب الجاه و السلطان و التجلة. و قبل ذلك نقول أن أبو عبد الله محمد بن عبد ا لكريم المغيلي التلمساني كان من العلماء الكبار الذين لهم بسطة في الفهم، تتلمذ على يد علماء و أئمة جهابذة أمثال الإمام عبد الرحمان الثعالبي، و الشيخ يحي بن يدير و غيرهما من علماء ذلك العصر.[3] و لما توفي المغيلي عام 909 هـ / 1504م،

---

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 45، 46.

[2] المرجع نفسه، ص 120.

[3] عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، الجزء الثاني ، المطبعة العربية، الجزائر 1375 هـ/ 1955م، ص 322.

كان قد ترك عدة تآليف قدرت بأكثر من أربعة عشر مؤلفا، أغلبها في الفقه و بعضها في اللغة و مواضيع الدعوى و الإصلاح.[1]

كان المغيلي آية في فصاحة اللسان و قوة البديهة، مترسلا بليغا، جسورا نظارا، و لا يخاف في الدين أحدا، ثائرا على أعداء الدين، لاسيما اليهود الذين وقعت له معهم حوادث كثيرة حينما ناصبهم العداء، و قد نازعه في هذا الموقف العديد من علماء توات و فاس و تونس و تلمسان.[2]

و من الذين انتصروا له محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي صاحب (نظم الدر و العقبان في شرف بني زيان و ذكر ملوكهم الأعيان و من ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان)، و الإمام السنوسي صاحب التوحيد. و من الذين أيدوا خصمه في القضية العصنوني قاضي تمنطيط عاصمة توات، و قد بسط الونشريسي هذه النازلة في معياره المعرب.[3]

و الحقيقة أن المغيلي لم يكن ليتخذ هذا الموقف من اليهود إلا لأنهم كانوا يحيكون الدسائس و المؤامرات و يسيطرون على أهم مدن الشمال و مفاصل التجارة و المال، و الأخطر من هذا كله أنهم كانوا يشترون ذمم الحكام و المسؤولين الكبار الذين جعلوهم صنائع لهم و عبيدا طائعين لكل نزواتهم المقيتة. و لما انتقل إلى إقليم توات جنوبا لاحظ كذلك أنهم كانوا ينعمون بحرية أكثر، و كانت لهم أيضا اليد العليا في تجارة القوافل التي كانت تتم مع السودان، فذاق بهم ذرعا و دعا لمحاربتهم، فالتف حوله حشد كبير من الأنصار و طاردوا اليهود، و هدموا بيعهم في منطقة توات.[4]

---

[1] رابح بونار: مصباح الأرواح في أصول الفلاح، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1968، ص 22.

[2] عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: المرجع السابق، ص 322.

[3] عبد الرحمان دويب: الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2013، ص 69.

[4] محمد بن عبد الكريم المغيلي: المصدر السابق، ص ص 8، 9.

أما عن علاقة المغيلي بالحكام و الأمراء، فقد شبهها المؤرخ أبو القاسم سعد الله بعلاقة جمال الدين الأفغاني بهذه الطائفة خلال العصر الحديث، ذلك أن المغيلي كان ناقما على أمراء و حكام المغرب العربي بسبب استهتارهم بالحكم و شؤون الرعية، و عدم حزمهم و تخاذلهم أمام الغزوات و التحرشات الأجنبية، ضف إلى ذلك أنه عاصر مأساة الأندلسيين و سقوط غرناطة آخر قلاع المسلمين بالأندلس عام 1492م، و تعرف عن كثب على أوضاع المشرق الإسلامي البائسة تحت حكم المماليك. و نتيجة لذلك اشتاط غيضا و راح ينشد الأمير الصالح في بلاد السودان و يرشده إلى التزام الجادة الإسلامية في حكمه، تماما كما فعل جمال الدين الأفغاني الذي راح هو الآخر يحث على ضرورة إقامة حكم إسلامي راشد تحت إمرة خليفة صالح في مصر و إسطنبول و بلاد فارس. و لاحظ المغيلي أن أمراء بلاد السودان كان لهم استعداد لتقبل النصيحة و الإرشاد، هذه القابلية التي لم تنعقد لنظرائهم في بلاده، فراح يؤلف رسالته الموسومة (الإمارة و شروطها) التي بين فيها أفكاره بوضوح حول الحكم الراشد، و واجبات و التزامات الحاكم المسلم الذي يخشى الله و يسعى إلى تطبيق تعاليم الإسلام. و قد قسم رسالته إلى ثمانية أبواب بين من خلالها موقفه من سلاطين عصره. و لم يكن موقفه ينطوي البتة على طمع في مال أو بحث عن حظوة أو جاه أو هوى أو حاجة من حوائج الدنيا.[1]

و بهذا نلاحظ أن تقرب المغيلي من الحكام و الأمراء كان يتم في إطار ضيق، و كان أيضا يقع بشيء من الاحتراز و الحذر. و هذا عكس علماء عصره الذين تقربوا من الأمراء لينشدوا المال و الجاه في بلاطهم، و ربما كان موقفه هذا موقفا متزنا و حصيفا، فهو لم يعتزل مجالسهم كما فعل الونشريسي، و في الوقت نفسه لم يغلق أبواب و قنوات الاتصال بهم حتى يتمكن من تمرير أفكاره و تبليغ رسالته.

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 47، 48.

3- الحياة العلمية و الإنتاج الثقافي

رغم الظروف السياسية المضطربة التي عاشتها الجزائر خلال القرن الخامس عشر الميلادي، إلا أن إنتاجها الثقافي كان وفيرا، و كان هذا العهد من أخصب عهودها، و يتجلى ذلك في كثرة المؤلفات و تعدد أسماء المثقفين و العلماء الذين طرقوا مختلف المعارف و العلوم، و في ما يلي نعرض إلى ذلك بشيء من التفصيل.

أ- اللغة و الأدب العربي

عرفت الجزائر خلال هذا العهد العديد من الشعراء و الأدباء، و قد اختلط الأدب و الشعر حينئذ بالتاريخ و التصوف، و تنوعت موضوعاته الدينية و الصوفية، كما تناول الشعراء موضوعات أخرى كالرثاء و الشكوى و الغزل و الصيد و نحو ذلك. و لعل ما ميز ذلك العهد أيضا هو بروز ظاهرة " الشعراء الرسميين" أي شعراء البلاط، و عليه سنقصر الحديث تباعا عن شاعرين منهما، و هما: أحمد بن محمد الخلوف، و محمد بن عبد الرحمان الحوضي.

- أحمد بن أبي القاسم الخلوف (829 هـ -899 هـ/ 1425م-1494م)

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن أبي القاسم محمد بن عبد الرحمان بن الخلوف الحميري، نزحت عائلته من فاس و استقرت بقسنطينة التي ولد بها، سافر مع والده و هو صبيا إلى مكة المكرمة و بيت المقدس أين حفظ القرآن الكريم. استقر مع والده في المشرق العربي و تعلم الفقه و علوم اللغة و الأصول و علوم القرآن و غيرها. و بعد وفاة والده انتقل إلى القاهرة و أخذ النحو و الصرف و المنطق عن العز عبد السلام البغدادي، ثم انتقل إلى المغرب و اشتهر بالأدب و العلم الغزير و الشعر الرقيق. و لما كان نابغة عصره في الشعر و

النثر، فقد عرف بين أدباء عصره بذي الصناعتين، له ديوان شعري كامل في المديح النبوي الذي كان من أصعب أغراض الشعر لعلو مقام سيدنا محمد صلى الله عليه و سلم.[1]

كانت أكثر أشعار أحمد بن أبي القاسم الخلوف في المدح السياسي حيث أكثر في مدح السلطان الحفصي أبي عمر و عثمان بن أبي عبد الله الحفصي، لذلك لقب بشاعر بلاط الحفصيين.[2] و قد ترك الخلوف إلى جانب أشعاره كتابا في العروض بعنوان (تحرير الميزان لتصحيح الأوزان)، و آخر في البديع بعنوان (مواهب البديع في علم البديع) و رجزا في الصرف سماه (جامع الأقوال في صيغ الأفعال)، و عملا في الفرائض بعنوان (كتاب عمدة الفائض).[3]

– محمد بن عبد الرحمان الحوضي المتوفى عام 900 هـ/ 1493م

للحوضي مجموعة كبيرة من الأشعار ذات أغراض عديدة. و يقول النقاد أن قصائده في مجال الغزل كانت تفتح الشهية بفضل رقة و عذوبة ألفاظها، كما كتب قصيدة في رثاء شيخه محمد بن يوسف السنوسي. و له قصيدة أيضا في التصوف و المديح النبوي مزج فيها بين حب النبي و العشق الإلهي، و له قصيدة أخرى على وزن وقافية بردة البوصيري، كما اشتهر بالمدح السياسي لذلك عرف بشاعر بلاط الزيانيين.[4]

ب– التاريخ و السير

خلف الجزائريون أعمالا جليلة في مجال التاريخ و التراجم و السير خلال الفترة التي ندرسها، غير أن هذه الأعمال كانت في الغالب الأعم مرتبطة بأسماء السلاطين و الدول،

[1] عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: المرجع السابق، ص ص 65، 66.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 70.

[3] عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: المرجع السابق، ص 66.

[4] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 70-72.

كما أن بعضها لم يكتب بأقلام المؤرخين، بل كتبه دارسو العلوم الأخرى كالحديث و الفقه و الأدب و الحساب و الفلك و غير ذلك [1]، و لما كان من الصعب التعرض لكل هذه الأعمال، نكتفي بذكر نماذج منها على سبيل المثال لا الحصر.

– محمد بن عبد الله أبي عبد الجليل التنسي المتوفى عام 899 هـ

يعد التنسي من أكبر مؤرخي هذه الفترة، حيث فرض نفسه على تراث القرن 15م بفضل كتابه الموسوم (نظم الدر و العقيان في شرف بني زيان و ذكر ملوكهم الأعيان و من ملك من أسلافهم فيما مضى من الزمان)، و هو كتاب أدبي أقحم فيه التاريخ إقحاما، تحدث فيه صاحبه عن مكانة بني زيان التاريخية [2]، كما نصح السلطان الحاكم حينئذ و هو أبو عبد الله بن أبي تاشفين بن أبي حمو الزياني بالتزام الطريق القويم، و نبهه إلى ما فيه صلاح الدولة بأسلوب لبق لا يثير حفيظة هذا السلطان، و لا يجعله يشعر بالتدخل في شأنه الخاص.[3]

يضاف إلى هذا أن الكتاب عالج موضوعات أخرى في الأدب، و شروط الإمارة، و أخبار الأمم المنصرمة، و محاسن اللغة العربية، و مقالة في الفلسفة و الأخلاق.[4] و ذكر المترجمون أن للتنسي تآليف أخرى أبرزها: " الطراز في شرح ضبط الخراز"، و هو شرح على " مورد الظمآن في رسم أحرف القرآن" و هو عبارة عن أرجوزة في 154 بيت في ضبط القرآن الكريم لمحمد بن إبراهيم الشريسي الفاسي المعروف بالخراز. و " راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمو من الشعر و قيل فيه من الأمداح، و ما يوافق ذلك على حسب الاقتراح"، و هو كتاب مفقود يحتوي على قصائد أبو حمو الزياني، و الجواب المطول في قضية يهود توات"

---

1 المرجع نفسه، ص 50.

2 صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 91.

3 مبارك بن محمد الميلي: المرجع السابق، ص 493.

4 أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 62، 63.

الذي نقم فيه على يهود توات الذين تمردوا على الأحكام كما وصفهم (و قد قدمنا الحديث عن هذه المسألة سابقا)، و ذكر المترجمون كذلك أن للتنسي مؤلفات أخرى مفقودة.[1]

– أحمد بن حسين بن علي المعروف بابن قنفذ القسنطيني المتوفى عام 810 هـ

يعد ابن قنفذ من الشخصيات العلمية التي لها باع طويل في التاريخ و التراجم و الرحلات و الأنساب، و قد خلف لنا عدة مؤلفات تنيف عن الثلاثين مؤلفا منها: الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية. و كتاب الوفيات، و طبقات علماء قسنطينة، و أنس الفقير و عز الحقير، و المسافة السنية في الرحلة العبدرية و هو خلاصة لرحلة العبدري و وسيلة الإسلام بالنبي عليه الصلاة و السلام و هو خلاصة لسيرة نبي الخلق محمد عليه الصلاة و السلام، و تلخيص العمل في شرح الجمل في المنطق، و أنوار السعادة في أصول العبادة، و تفهيم الطالب لمسائل أصول ابن الحاجب، و علامة النجاح في مبادىء الإصلاح، و شرح الأرجوزة التلمسانية في الفرائض، و معاونة الرائض في مبادئ الفرائض، و بغية الفارض من الحساب و الفرائض، و اللباب في اختصار الجلاب، و هدية المسالك في بيان ألفية ابن مالك، و بسط الرموز الخفية في شرح عروض الخزرجية، و تسهيل المطالب في تعديل الكواكب، و تحصيل المناقب و تكميل المآرب، و سراج الثقات في علم الأوقات، و وقاية الموقت و نكايت المنكت، و القنفذية في أبطال الدلالة الفلكية، و حط النقاب عن وجوه أعمال الحساب، و التمحيص في شرح التلخيص، و أنس الحبيب عند عجز الطبيب... و غيرها من المؤلفات الأخرى في مجال السير و المعرفة التاريخية.[2]

– عبد الرحمان الثعالبي (785 هـ – 875 هـ/1383م –1479م)

---

[1] محمد بن عبد الله التنسي: نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق و تعليق محمود آغا بوعياد، موفم للنشر، الجزائر 2011، ص 23.

[2] رشيد بورويبة و آخرون: الجزائر في التاريخ، الجزء الثالث: العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني، م.و.ك، الجزائر، 1984، ص 450

رغم أن اسم الثعالبي قد التصق بالزهد و التصوف، إلا أن مساهمته كانت معتبرة كذلك في السير و التاريخ. فقد ترك لنا كتابا في السيرة بعنوان (الأنوار في آيات النبي المختار)، حدثنا فيه عن السيرة النبوية الشريفة، و عن غزوات الرسول عليه الصلاة و السلام، و سيرة الصحابة و غزواتهم و سائر أحوالهم. كما ترك لنا كتابا في التراجم بعنوان (جامع الهمم في أخبار الأمم) و المعروف بالجامع، و هو عبارة عن تراجم و مناقب و تواريخ التي يسميها الثعالبي (غنيمة ذوي الألباب)، و فيها دعوة للاستعداد إلى الآخرة وفق منهج الزهاد و المتصوفة مع ضرورة اتباع سلسلة من الأذكار و الأدعية.[1]

ج- التصوف و علم الكلام

كان إنتاج الجزائريين في التصوف و علم الكلام غزيرا، و لا نريد أن نتوسع في الحديث عن هذا الجانب حفاظا على انسجام الموضوع، لذلك سنكتفي بالتعرض تباعا و بصورة مختصرة لثلاث شخصيات علمية بارزة منتجة في مادة العقائد و هم: أبو زيد عبد الرحمان الثعالبي و محمد بن يوسف السنوسي، و أبو العباس بن زكري التلمساني.

- أبو زيد عبد الرحمان الثعالبي (786 هـ أو 787 هـ – 1385م/ 875 هـ – 1470م)

كان أبو زيد عبد الرحمان الثعالبي من أكبر علماء العقيدة، تخرج على يده عدة أعلام في علم الكلام كالإمام محمد بن يوسف السنوسي، و الشيخ أحمد زروق، و محمد المغيلي، و أحمد بن عبد الله الجزائري و ابن مرزوق الكفيف و غيرهم. عكف على خدمة الشريعة، و ترك ما ينيف عن تسعين مؤلفا، منهاكتاب الجواهر الحسان في تفسير القرآن، و كتاب جامع الهمم في أخبار الأمم، و جامع الأمهات في أحكام العبارات، و الإرشاد في مصالح العباد،

[1] أبو القاسم سعد اله: المرجع السابق، ص ص 59، 60.

و الأنوار المضيئة في الجمع بين الشريعة و الحقيقة، و كتاب العلوم الفاخرة في أحوال الآخرة و غيرها من التآليف الأخرى.[1]

و بعد وفاته أسس أتباعه زاوية عند ضريحه استقطبت الزوار و قصدها الدارسون و الطلاب للتبرك و الشفاء من الأسقام، و مع مرور الوقت أصبحت عبارة الثعالبية عنوان لمدرسة الزهد و الورع و الانعزال و التصوف و العناية بعلوم الآخرة و الابتعاد عن أدران الحياة الدنيا.[2]

– محمد بن يوسف السنوسي المتوفى عام 895 هـ

محمد بن يوسف السنوسي هو أصيل مدينة تلمسان، و أحد كبار علماء عصره، تفوق في مختلف العلوم العقلية و النقلية، إلا أنه نبغ بشكل واضح في مجال العقيدة [3] التي ألف فيها ما يربو عن خمسة عشر مصنفا، ناهيك عن التفسير و علم المنطق و الحساب و الطب و الجبر و المقابلة و القراءات و الفرائض و الحديث و التفسير و التصوف و الأذكار و غيرها، والتي فاق عددها خمسة و ستون مصنفا.[4]

و يبدو أن غزارة علم محمد السنوسي في المجال الصوفي، يعود الفضل فيها بالأساس إلى أساتذته و على رأسهم عبد الرحمان الثعالبي و إبراهيم التازي، هذا الأخير الذي ألبسه الخرقة الصوفية و بصق له في فمه كما درجت عادة المتصوفة في ذلك الزمان، و قد نسبت إليه كرامات كثيرة فاقت الكرامات التي نسبت لأستاذه الثعالبي، و بهذا فقد زاوج محمد السنوسي بين العالم المستنير و المتصوف الدرويش.[5]

---

[1] عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: المرجع السابق، ص ص 263، 264.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 84.

[3] خير الدين الزركلي: معجم الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980، ص 154.

[4] أبي العباس أحمد بابا التنبكتي: اللآلي السندسية في الفضائل السنوسية، و هو مختصر كتاب المواهب القدسية في المناقب السنوسية، تحقيق محمود براهم، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر 2011، ص ص 10-13.

[5] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 87، 88.

– أبو العباس بن زكري التلمساني المتوفى عام 899 هـ أو 900 هـ

لأبي العباس التلمساني العديد من المؤلفات منها: أرجوزة في علم الكلام، و بغية الطالب في شرح عقيدة ابن الحاجب، و غاية المرام في شرح عقيدة الإمام، و عموما فإن مؤلفات هذا العالم لا تخرج عن الفقه و أصوله و علم الكلام.[1]

د– العلوم و المنطق

إذا عقدنا مقارنة بسيطة بين إنتاج الجزائريين في التصوف و التاريخ و الأدب من جهة و العلوم الرياضية و الطبية من جهة أخرى للاحظنا منذ الوهلة الأولى أن إنتاج العلوم الأخيرة كان هزيلا، و يعوزه الاختصاص، و مع ذلك سنسوق مثالين عن عالمين نبغا في هذا المجال.

– إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني (المتوفى في أوائل القرن التاسع الهجري)

ألف إبراهيم الثغري معجما بأسماء الأعشاب التي كان يتداوى بها العرب مرفوقة بمعلوماته الشخصية عن الأدوية المتداولة عند الناس في عهده، و كان كلما يذكر الدواء يذكر معه منافعه، و له كذلك رسالة أخرى في الطب، تكلم فيها عن الأدوية و منافعها و قسمها إلى أبواب بعناوين معينة.[2]

– أبو الفضل محمد المشدالي (821 هـ أو 822 هـ –1417م/ 864 هـ – 1460م)

أبو الفضل محمد المشدالي أصيل مدينة بجاية، درس علوما غزيرة، و سافر كثيرا، و صاحب ذوي الحظوة و السلطان الأكبر، و جادل في مسائل عديدة مع المسلمين و غير المسلمين، و من الذين تعرف إليهم في مصر و تشرفوا بصحبته الإمام السخاوي الذي ترجم له ترجمة ضافية و قال عنه أنه " في الطب واحد عصره و فريد دهره". و رغم أن المشدالي

[1] رشيد بورويبة و آخرون: المرجع السابق، ص 445.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع الساق، ص ص 105، 106.

كان بارعا في الطب إلا أنه كان يكره أن يشتهر به، و لم يكن يستجب لطلبات مرضاه إلا بعد إلحاح شديد، حتى و إن كانوا من علية القوم.

ألف المشدالي شرحا في الطب أيضا، و قيل أن ما قام به في هذا المجال هو تلخيص و تحقيق و شرح لأعمال من سبقوه كإبن مرزوق و سعيد العقباني و الشريف التلمساني و ابن واصل الحموي و غيرهم.[1]

هـ- القراءات و التفسير

لم يتناول الجزائريون علم القراءات و رسم القرآن الكريم إلا في القليل النادر. و يقصد برسم القرآن رسم خطوط المصاحف مثل تبيان الزائد و الناقص و المبدل و نحو ذلك. و من الذين نبغوا في هذا المجال نذكر محمد بن عبد الله بن الجليل التنسي، و أحمد بن يحي الونشريسي.

- محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي المتوفى عام 899 هـ

تحدثنا فيما مضى عن هذه الشخصية العلمية في معرض كلامنا عن التاريخ و السير، و يبدو أن هذا العالم كان عالما موسوعيا لأنه طرق علوما كثيرة و منها علم القراءات و التفسير، فقد ألف كتابا بعنوان (الطراز في شرح الخراز) الذي أراده أن يكون وسطا بين الاختصار الذي يفقد المعنى و الإسهاب الممل، و هو أسلوب سار عليه الونشريسي المعروف بالخراز في علم الضبط الذي يعنى بعلامة الحركة والسكون والشد و المد و الساقط و الزائد.[2]

- أحمد بن يحي الونشريسي (834 هـ – 914 هـ)

[1] عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: المرجع السابق، ص ص 252-261.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 114.

لا يختلف إثنان في أن أحمد الونشريسي يعد قمة في ميدان الفروع الفقهية، و حامل لواء المذهب المالكي في بلاد المغرب العربي خلال القرنين التاسع و العاشر الهجريين، و قد أشرنا إليه سابقا في معرض حديثنا عن علاقة العلماء بالأمراء، و قلنا بأنه صاحب المدونة الفقهية الشهيرة المعروفة بإسم (المعيار المعرب عن فتاوي علماء إفريقية و الأندلس و المغرب). فبالإضافة إلى ذلك للونشريسي (إيضاح المسالك إلى قواعد الإمام مالك، و غنية المعاصر، و التالي في شرح وثائق القشتالي، والفائق في أحكام الوثائق) و غيرها...[1] و قد تركت وفاة هذا العالم فراغا رهيبا في مجال الفقه، لم يتمكن أحد من الفقهاء من ردمه، لذلك رثاه كثيرا من العلماء و الشعراء.[2]

و قبل أن نختم حديثنا عن باب القراءات و التفسير و الفقه، نشير إلى أن قسنطينة كانت قد عرفت عهدئذ عالما نحريرا آخرا في باب النوازل، حدثنا عنه شيخ الإسلام و داعية السلفية عبد الكريم الفكون، و لم يكن هذا العالم سوى محمد بن محمد بن أبي القاسم الغربي الميلي القسنطيني شارح رسالة سيدنا عمر بن الخطاب، و هي رسالة في القضاء بعنوان (فتح الملك الوهاب بشرح رسالة عمر بن الخطاب) [3] و غني عن البيان أن الرسالة المعنية في هذا السياق، هي تلك الرسالة الشهيرة التي بعث بها عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في مصر.

بهذا يتراءى لنا أن الجزائر كانت قد عرفت تحولات عميقة خلال القرن 15م مست مختلف الميادين. ففي الميدان السياسي رأينا أنها قد شهدت ضمور دويلات مزقها الوهن الداخلي من ناحية بسبب استبداد حكامها و زوخهم و تيههم و انغماسهم في حمأة الفساد

[1] رشيد بورويبة و آخرون : المرجع السابق، ص 446.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 126.

[3] عبد الكريم الفكون شيخ الإسلام: منشور الهداية في كشف حال من إدعى العلم و الولاية، تقديم و تحقيق و تعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987، ص 40.

و عبثهم بمصير الدين و البلاد و العباد، و من ناحية أخرى كان التكالب الخارجي المسيحي. و قد ترتبت على ذلك كله نتائج وخيمة على الحياة الثقافية حيث هاجر عدد غير قليل من العلماء إلى المشرق و المغرب، و ربط بعضهم مصيرهم بالأمراء، و انعزل البعض الآخر مفضلا حياة الزهد و الانطواء و الدعة. و في ظل هذه الصورة المضطربة كانت أمواج المهاجرين الأندلسيين تتوافد على الجزائر و ينشدون الحماية و الأمن. و مع ذلك فقد نشطت الحركة العلمية، إلا أن الاهتمام كان منصبا بصورة مركزية على علوم الدين و التصوف و الفروع الفقهية، و بالمقابل كانت مساهمة العلوم العقلية و العملية في الحقل العلمي مساهمة هزيلة و هامشية.

II- المؤسسات الثقافية

تشمل المؤسسات الثقافية التي كانت موجودة في الجزائر خلال العهد العثماني المساجد و الزوايا والمدارس والمعاهد العليا و المكتبات. و قبل أن نفتتح الحديث عن هذه المؤسسات، نرى من الضروري أن نسلط الضوء على أكبر مؤسسة كانت تمول هذه المؤسسات هي الأوقاف.

1- الأوقاف

تشكل الأوقاف إحدى مظاهر الحضارة الإسلامية التي ميزت العهد العثماني في الجزائر، و كان لها تأثير واضح على أوضاع الجزائر عهدئذ. و الوقف هو عقد لعمل ذي صبغة دينية، يقوم على ثلاثة أركان جوهرية هي : الواقف والموقوف و الموقوف عليه، فالأول يجب أن يكون أهلا لمباشرة هذا التصرف، والثاني و هو المتمثل في المنفعة التي تصرف على سبيل الحبس، بينما الثالث و هو الموقوف عليه، فهو الطرف الذي يستحق صرف تلك المنفعة كأن يكون مرفقا عاما مثل المساجد و الزوايا و المدارس و غيرها. و يشترط عقد الوقف الصيغة القضائية التي تحدد قيمة الوقف و أطرافه و أغراضه و كيفية الاستفادة منه و

انتقاله و نموه و سائر أحواله، و هي مسائل لا بد أن تكون واضحة في العقد و ضوحا نافيا للجهالة.[1]

و يستعمل الوقف لأغراض خيرية متعددة كالعناية بالعلم و العلماء، و طلبة العلم الفقراء، والعجزة واليتامى و أبناء السبيل كما يعنى بالمساجد و المدارس والزوايا و الأضرحة، و قد يكون من أغراضه أيضا الاعتناء بطائفة معينة من الناس دون سواها كفقراء الأشراف و فقراء الأندلس أو فقراء مكة و المدينة. و قد يوقف على أغراض أخرى مثل شراء الزيت للإنارة العمومية، و غيرها من الأغراض الخيرية الأخرى.[2]

لقد تعدد الواقفون في الجزائر العثمانية، ففيهم الرجال و النساء، و فيهم العثمانيون والحضر، و فيهم الحكام و أصحاب النفوذ و الحظوة، و فيهم كذلك المالكية و الأحناف، غير أن القاسم المشترك بين هذه الطوائف أنهم كانوا محبين لفعل الخير و ينتمون في الغالب الأعم إلى طبقة الأثرياء و متوسطي الحال. و بمفهوم المخالفة، فإن طبقة الفقراء لا توقف أملاكها إلا في القليل النادر، لأنها بدورها تكون في حاجة ماسة إلى مداخيل هذا الوقف. و يكون الهدف من الوقف هو خدمة الدين و العلم و إصلاح المجتمع، و قد يكون الهدف منه أحيانا السمعة و الرغبة في الخلود، و أحيانا أخرى حرمان بعض الورثة من الثروة و الاحتفاظ بالتركة تحت ستار الوقف لكي لا تنتقل إلى الدولة بقوة القانون حيث تؤول الأموال التي لا وارث لها بالضرورة إلى بيت المال.[3]

[1] ناصر الدين سعيدوني: دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر _العهد العثماني _، م.و.ك، الجزائر، 1984، ص 149.

[2] Albert Devoulx : « Les Edifices Religieux de l'Ancien Alger », in R.A n° 10, Année 1866, p 380.

[3] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 228، 229.

و تجدر الإشارة إلى أن معظم الحكام العثمانيين الذين باشروا دفة الحكم في الجزائر لمدة طويلة كانوا قد بنوا جامعا أو زاوية جعلوها وقفا، و كمثال على ذلك كقيام خير الدين بربروس بوقف قطعة أرضية على جامع سفير الذي بناه خادمه عبد صفر عام 1534م.[1]

و كذلك قيام شعبان خوجة بإنشاء مؤسسة سبل الخيرات عام 1584م التي كانت أشهر مؤسسة وقفية جماعية تشرف على إدارة أوقاف ثمانية مساجد، و تمارس عدة وظائف خيرية في الزوايا و المدارس و المساجد، و كانت تعنى أيضا بالموظفين والفقراء.[2]

و بهذا يمكن القول أن مؤسسة الوقف في الجزائر خلال العهد العثماني كانت مؤسسة ثقافية تؤدي عدة وظائف دينية و تعليمية إلى جانب وظائفها الاجتماعية القائمة على مبدأ التضامن الاجتماعي.

2- المساجد

لا يفرق الباحثون في كثير من الأحيان بين الجامع و المسجد و الزاوية بسبب تداخل الوظائف و المهام التي كانت تباشرها كل مؤسسة من هذه المؤسسات خلال العهد العثماني. غير أن التفرقة تدق بينهم إذا نظرنا إلى حجم كل منهم، فالجامع أكبر حجما من المسجد، و تؤدى فيه صلاة الجمعة، و هي المهمة أو الوظيفة التي لم تنعقد إلى المسجد، كما أن المساجد و الجوامع لا تنسب في الغالب الأعم إلى الأولياء الصالحين، بل تنسب إلى مؤسسها الذي قد يكون رجل سياسة أو رجل عسكر، أو صاحب مال و جاه و ثروة، في حين أن الزوايا تنسب إلى ولي من أولياء الله الصالحين إلا في القليل النادر. ضف إلى ذلك أن الجوامع كانت تنسب أحيانا إلى الأماكن و الأحياء التي تبنى فيها، أو إلى الحرفة و الصنعة التي يشتهر بها أهل الحي الذي يوجد به ذلك الجامع.[3]

---

[1] Albert Devoulx : « Les Edifices Religieux de l'Ancien Alger », in R.A n° 14, Année 1870, p 189.

[2] Georges Yver : « Mémoire de Bouderba », in R.A n° 57, Année 1913, p 240.

[3] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 243.

و قد شهدت المدن الجزائرية تأسيس العديد من المساجد و الجوامع خلال العهد العثماني مثل الجامع الكبير بالعاصمة الذي كان مقرا للمفتي المالكي، والجامع الجديد الذي كان هو الآخر بالعاصمة و كان مقرا للمفتي الحنفي، و جامع الباي بقسنطينة، و جامع صالح باي بعنابة، و جامع الباشا بوهران، و جامع محمد الباي الكبير بمعسكر الذي ألحقت به مدرسة، و أوقفت له أوقافا كثيرة، و جامع سيدي بومدين، والجامع الكبير، و جامع محمد السنوسي، و جامع ابن زكري، و جامع أولاد الإمام بتلمسان، والجامع الكبير و جامع سيدي المزاري والجامع الأحمر بالمدية.[1]

و كانت هذه المؤسسات الدينية أماكن للعبادة و نشر العلم و الفضيلة و ملتقى كل شرائح المجتمع من عامة و أعيان و نخب. و كانت أيضا عصب الحياة العلمية و الاجتماعية، و هي أماكن حيوية في الأرياف و المدن لأن الجميع يشترك في بناءها، كما يشترك كذلك في أداء المهام و الوظائف التي كانت تباشرها. و كان بناء المسجد عملا فرديا بالأساس يقوم به المحسنون، و يباشرون إجراءات و تراتيب وقفه و يسهرون على صيانته، و يساعدهم في ذلك أعيان و وجهاء القرية أو الحي من أجل المساهمة في جمع التبرعات و غيرها من المسائل المتعلقة بعملية البناء و التشييد. أما السلطة السياسية القائمة فإن دورها في هذا المجال لا يتعدى دور الأفراد لأن القاعدة العامة أن بناء المساجد و الجوامع لم يكن في واقع الأمر من مشمولات الدولة.[2]

و إذا حدث و أن تدخل الحكام و قاموا بتمويل مشاريع عمومية كبناء المساجد و المرافق الثقافية والدينية الأخرى، فذلك يمثل استثناء عن القاعدة العامة. و من أمثلة ذلك ما قام به محمد بن عثمان باي معسكر من أعمال خيرية في هذا الإطار حيث قام بعدة

[1] أحمد مريوش و آخرون: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، الجزائر، 2007، ص ص 12، 13.

[2] أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق، ص ص 244، 245.

تصليحات في المساجد، كما أعطى الأوامر بزيادة أحباس الجامع الأكبر و ترتيب المدرسين في الجوامع.[1]

و عموما فإن عدم التفات رجال السلطة العثمانية إلى هذا الجانب يمثل وجها من أوجه السياسة العامة لنظام الحكم القائم أنذاك، والذي كان يهدف إلى المحافظة على الاستقرار الداخلي مع ضمان استمرارية مصالح الطبقة الحاكمة، لذلك كانت جل مصاريف الدولة موجهة لصرف رواتب الجند و موظفي الدولة، و مختلف مرافق الدفاع، والحرص على تمتين تبعية الأهالي للنظام القائم، و التقرب من الأشراف والمرابطين و استعطافهم و محاولة استقطابهم و جعلهم مطية لفرض منطق السلطة القائمة.[2]

و أي كان الأمر فإن المساجد أو الجوامع كانت من المؤسسات الحيوية التي لعبت دورا حاسما في الحياة الثقافية للجزائر خلال العهد العثماني من خلال دورها الديني و العلمي بل و حتى الاجتماعي.

3- الزوايا

الزوايا بالتعريف هي عبارة عن بنايات تختلف عن بعضها البعض من حيث الشكل و الحجم، و هي تحتوي على قاعات للصلاة، و أماكن لتحفيظ القرآن الكريم، و تلقين و تعليم العلوم العربية و الإسلامية كما تضم أماكن مخصصة للسكن تأوي الطلبة الذين يتعلمون فيها و يقيمون بها، و تضم أيضا أماكن أخرى مخصصة لطهي الطعام و تخزين المواد الغذائية و الأعلاف، و إيواء مختلف الدواب و الحيوانات التي تستعمل في الأشغال المختلفة للزاوية.[3]

---

[1] ابن سحنون الراشدي و أحمد بن محمد بن علي: الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق و تقديم المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، سلسلة التراث، قسنطينة، الجزائر، 1973، ص ص 132-135.

[2] ناصر الدين سعيدوني: النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830، م.و.ك، الجزائر، 1985، ص ص 247، 248.

[3] يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 201.

أما عن إيتيمولوجيا الزاوية أو أصل التسمية، فيرى البعض أنها جاءت بسبب ارتباطها بالولي أو الشيخ الذي ينعزل فيها و ينزوي في ركن أو زاوية من زوايا البناية التي يؤدي فيها صلواته وحيدا، و يتواصل مع الله عز و جل الذي يراه و يسمعه.[1] في حين يرى البعض الآخر أن الزاوية أخذت هذا الإسم بسبب انزوائها عن المدينة، ذلك أن الزوايا كانت في الغالب الأعم تشيد في الأرياف أو في أطراف المدينة أو في أحد أركانها.[2]

أما الذين يسهرون على تأسيس هذه الزوايا فهم رجال دين متصوفة و زهاد و أهل صلاح و تقوى، تشكلت نواة حركتهم في المشرق العربي منذ القرن الثاني للهجرة على يد رابعة العدوية، و أبي يزيد طيفور البسطامي الفارسي، و أبي القاسم الجنيد العراقي في القرن الثالث للهجرة، و الحلاج في القرن الرابع للهجرة، و أبي حامد الغزالي في القرن الخامس للهجرة، و محي الدين بن العربي الأندلسي في القرن السابع للهجرة، بعد ذلك انتقلت حركة الزهد و التصوف إلى بلاد المغرب في نهاية الفترة الوسيطة و بداية الفترة الحديثة، ثم ما فتئت أن توسعت و انتشرت بشكل واسع إعتبارا من القرن 17م و بعده، و بالموازاة مع ذلك كثرت الزوايا بإعتبارها الفضاء الملائم لنشر الفكر الصوفي.[3]

و كانت الزوايا تشبه الرباطات، بل أن لفظ "زاوية" كان في البداية مرادفا لكلمة "رابطة" أو " رباط"، و أن الزاوية كانت قد حلت محل الرباط، فورثت بالتالي وظائف الرباط و أهمها الوظيفة الحربية [4]، ذلك أن الرباطات كانت تتميز بقربها من مراكز العدو، و أن الهدف من تأسيسها كان خدمة مقاصد الجهاد و الدفاع عن بيضة الإسلام دون إغفال الوظيفة العلمية. و هذا ما يفسر انتشارها في البداية في المناطق الساحلية التي كان ينزل فيها

---

[1] Abdelhamid Benachenhou : op. cit p 140

[2] محمد علي دبوز: نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة، الجزء الأول، المطبعة العربية، الجزائر، 1971، ص 42.

[3] يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 201.

[4] العيد مسعود: " المرابطون و الطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني"، سيرتا، مجلة تاريخية اجتماعية يصدرها معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، العدد 10، عام 1988، ص 4.

الأعداء أو كانوا يهددونها. و من هنا كان طلبة هذه الرباطات يمارسون وظيفة الجهاد، و في الوقت نفسه كانوا علماء و طلبة علم. و كان الطلبة المجاهدون يجتمعون بها أيام الحروب للتخطيط و الانطلاق للدفاع و الذود على حياض البلاد، كما كانت مكانا للراحة و الزاد و السكن.[1]

و اعتبارا من القرن 15م شهدت الزوايا نموا كبيرا في الجزائر، غير أن انتشارها كان أوسع منذ بداية القرن 16م، أي منذ بداية الحكم العثماني. و قد أوعز الأستاذ العيد مسعود هذا الانتشار إلى حادثتين كبيرتين كان لهما وقع كبير في حياة عموم مسلمي الجزائر هما: ضياع بلاد الأندلس و سقوطها تحت السيطرة الإسبانية المسيحية عام 1492م، و الغزو الأجنبي الذي قادته إسبانيا المسيحية ضد ثغور الجزائر في إطار حروب الاسترداد (الروكنكيستا) التي تبناها ملوك إسبانيا الصليبيين.[2]

و يقسم الباحثون الزوايا إلى نوعين:

- النوع الأول، هو النوع الخلواتي الذي يدعي فيه شيوخه و أتباعه المعرفة بالأسرار الدينية الغيبية كما يدعون أيضا أن لهم القدرة على تلقينها و نقلها لأتباعهم الذين يطلقون عليهم ألقاب " المريدين" و " الإخوان"، و " الفقراء"، و يلزمونهم بتعاطي أذكار خاصة، تذكر في صلوات معينة تعرف بأذكار "الورد" (بكسر الواو و سكون الراء)، تتلى يوميا بصورة جماعية، و تؤدى غالبا بعد صلوات الصبح و العصر و المغرب، و أحيانا بعد صلاة الظهر و على هذا الأساس سمي شيوخ هذه الزوايا الخلواتية بالطرقيين لأن كل

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 271، 272.

[2] العيد مسعود: المقال السابق، ص 6.

شيخ منهم له منهجه الخاص في الذكر يفرضه على أتباعه من " المريدين" و " الإخوان" و " الفقراء".[1]

- أما النوع الثاني، فهو النوع غير ا لخلواتي الذي لا يدعي فيه شيوخ هذه الزوايا معرفة الأسرار الدينية الغيبية، غير أنهم كانوا يتخذون لأتباعهم أورادا خاصة من الأذكار تتلى في آخر كل صلاة، كما أن الزوايا غير الخلواتية تباشر مهام تعليم القرآن الكريم للأطفال، و تعليم بعض العلوم الدينية، و بعض علوم اللغة، فهي من هذه الزاوية تتقاطع مع الكتاتيب القرآنية من حيث الوظيفة.[2]

كانت الزوايا خلال العهد العثماني منتشرة بشكل كبير في الأرياف و المدن. ففي مدينة الجزائر مثلا هناك زاوية و ضريح عبد الرحمان الثعالبي، و زاوية عبد القادر الجيلاني، و زاوية سيدي محمد الشريف، و زاوية سيدي الفاسي، و زاوية سيدي السعدي، و زاوية البركاني و غيرها. و بلغ عدد الزوايا في قسنطينة و ضواحيها ست عشر زاوية، و اشتهرت الزواوة و بجاية كذلك بزواياها حيث كانت من أغنى مناطق الجزائر بهذا الإرث الروحي إذ قدر عددها بأزيد من خمسين زاوية.[3]

و من المدن الأخرى التي اشتهرت بالزوايا كذلك خلال العهد العثماني مدينة تلمسان و منطقتها، حيث كانت بها زاوية سيدي الطيب، و زاوية سيدي بومدين، و زاوية محمد السنوسي، و زاوية أحمد الغماري، و زاوية و ضريح سيدي الحلوي الأندلسي، و زاوية عين

[1] أبو عبد الله محمد بن أحمد ابن مريم: البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، تحقيق و تعليق محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908، ص 65.

[2] يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 202.

[3] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 263، 264.

الحوت. و تجدر الإشارة في هذا السياق إلى أن بايات الغرب كانوا يولون إهتماما خاصا بهذه الزوايا و يوقفون عليها الأوقاف.[1]

و قد درجت العادة أن إدارة الزاوية تؤول حصريا إلى أحد ذرية المرابط الذي أسسها، و يسمى "شيخ الزاوية"، و إليه ترجع وظيفة التربية و التعليم و الإشراف على المدرسين داخل هذه الزاوية. و يساعده في أداء هذه المأمورية الوكيل و بعض الخدم الذين يقدمون خدمات على سبيل التطوع. أما موارد الزاوية فتتمثل فيما يوقفه الأتباع عليها، كما تتمثل في الزكاة و الهدايا العينية التي يقدمها الزوار، و تشمل أيضا النذور، و ما يجمعه طلبتها من أموال في المناطق الخاضعة لنفوذها، ناهيك عن تبرعات المسافرين الذين ينزلون بها، و ما يحمله كل طالب لها كلما حضر للدراسة بها.[2]

و قد لعبت الزوايا بمختلف أشكالها و أنواعها أدوارا هامة في الحياة الثقافية و الاجتماعية بل و حتى السياسية في الجزائر خلال العهد العثماني، حيث اهتمت بتحفيظ القرآن الكريم و نشره و تعميمه بين مختلف شرائح المجتمع، و احتضنت اللغة و الثقافة العربية و الاسلامية، و عملت على إزالة الفوارق الاجتماعية بين الفئات الاجتماعية المختلفة حيث قربت بين الأغنياء و الفقراء و العلماء و الأميين، و لعبت دورا مركزيا في إطفاء نار الفتن و الخصومات بين مختلف الطبقات الاجتماعية، و ذلك بفضل مركز شيوخها و نفوذهم الديني و الأدبي، و كانت أيضا بمثابة مخازن للكتب و المخطوطات في مختلف العلوم و الفنون. و قد انفضت من حول الولاة و الحكام العثمانيين المستبدين و وقفت إلى جانب السكان الساخطين على ظلم و جور السلطة العثمانية. غير أن البعض منهاكان قد حاد عن جادة الصواب و راح ينشر الدروشة و الخرافات والبدع بين الأتباع و الشيوخ.[3]

---

[1] Ch. Brosselard : « Les Inscriptions Arabes de Tlemcen : Mosquée et Tombeau de Sidi el H'aloui », in R.A n° 4, Années 1859-1886, pp 16, 168-171.

[2] العيد مسعود: المقال السابق، ص 7.

[3] يحي بوعزي: المرجع السابق، ص ص 203-205.

و بهذا يمكن القول أن الزوايا كانت خلال العهد العثماني قد لعبت دورا إيجابيا داخل المجتمع الريفي و الحضري الجزائري، و تبنت قضاياه، و دافعت عن قيمه الدينية، و قدمت خدمات جليلة لمستحقيها، الأمر الذي يؤكد مرة أخرى أنها كانت إحدى المؤسسات الثقافية الهامة في الجزائر خلال تلك الحقبة الزمنية.

4- المدارس و المعاهد العليا

كانت المدارس الابتدائية خلال العهد العثماني منتشرة في المدن القرى و الأرياف الجزائرية، و قد شهد الفرنسيون على ذلك حينما احتلوا الجزائر عام 1830م، و أكد المسؤولون الفرنسيون حينئذ أنه لا تكاد تخلو منطقة في الجزائر من مدرسة ابتدائية حيث قدر معدل عددها بمدرستين لكل قرية.[1]

و كانت مدينة تلمسان تشتهر بوفرة المدارس و العلماء قبل انضوائها تحت راية الحكم العثماني، و رغم إدعاء بعض الرحالة أن هذه المدارس قد انقرضت خلال العهد العثماني إلا أن الفرنسيين كانوا قد وجدوا بها بعد احتلالها خمسين مدرسة ابتدائية و مدرستين للتعليم الثاثوي و العالي، و هما مدرستا الجامع الكبير و مدرسة أولاد الإمام. و ما يقال عن تلمسان ينطبق كذلك عن قسنطينة التي كثرت فيها المدارس الابتدائية خلال العهد العثماني.[2] و قد وجد الفرنسيون فيها عام 1837م ــ و هو عام استيلائهم عليها ــ خمسة و ثلاثين مسجدا وسبع مدارس يقصدها زهاء 700 تلميذ يتلقون فيها تعليما ثانويا، كما وجدوا بها أيضا تسعين مدرسة ابتدائية تتسع لزهاء 1350 تلميذا.[3]

---

[1] Mostefa Lacheraf : « La Situation Culturelle et Scolaire en 1830 », in Culture Algérienne dans les textes, choix et présentation par Jean Dejeux, Editions Published, Paris, France, S.D, p 21.

[2] أبو القاسم سعد الله: ا لمرجع السابق ص ص 274، 275.

[3] عبد الحميد زوزو: نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، د.م.ج، الجزائر 2007، ص 217.

و لم تكن الجزائر العاصمة كذلك أقل عناية بالمدارس الابتدائية و المعاهد العليا خلال العهد العثماني. و قد أشار الرحالة المسلمون الذين زاروها حينئذ إلى ذلك، غير أن اهتمامهم كان منصبا بالأساس على المؤسسات التي كانوا يؤمونها مثل الجوامع و الزوايا و المدارس العليا، و بالمقابل كانوا لا يلتفتون كثيرا إلى المدارس الابتدائية. و قد تحدث أبوراس الناصري الذي زارها عام 1214 هـ عن المدرسة القشاشية و قال بأنها كانت مركزا للتعليم الثانوي و العالي، كما تحدث ابن حمادوش عن مدرسة الجامع الكبير. و ذكر (بانانتي) الذي زار الجزائر في بداية القرن 19م أن مدينة الجزائر كانت توجد بها ثلاث مدارس عامة، و أشارت مصادر أخرى إلى أن المدينة كانت تضم ما يقارب مائة مدرسة بين ابتدائية و ثانوية و معهد عال عام 1830م.[1]

و إذا كان الحكام العثمانيون لم يعيروا الاهتمام اللازم بالتعليم، و لم يقوموا بإنشاء و تشييد المدارس و المعاهد كقاعدة عامة، فهناك من صنع الاستثناء، و منهم صالح باي في بايلك الشرق و محمد الكبير في بايلك الغرب اللذان شجعا الثقافة و المثقفين و الحركة العلمية بصفة عامة.[2] فقد بذل صالح باي (1771م–1792) جهودا مضنية في مجال إحياء الحركة العلمية، و توسيع نطاق المعرفة و الاهتمام بالمدارس و المعاهد، و التعليم و برامجه[3]، كما اهتم بالمعلم و المتعلم على حد سواء، و سهر على توفير شروط الراحة و الإقامة للمتعلمين الوافدين إلى مدينة قسنطينة من المناطق البعيدة.[4]

كما اشتهر صالح باي كذلك بإنشائه للمدرسة الكتانية، و المسجد أو الجامع الأعظم عام 1774م، و أوقف عليه من أملاكه الخاصة.[5]

---

[1] أبو القاسم سعد الله : المرجع السابق، ص 276.

[2] محمد الطمار: المرجع السابق، ص 252.

[3] سليمان الصيد: نفح الأزهار في قسنطينة من الأخبار، المطبعة الجزائرية للمجلات و الجرائد ، الجزائر، د.ت، ص 35.

[4] A.Cherbonneau : « Inscription Arabe » in R.A n° 3, Année 1858, p 469.

[5] فاطمة الزهراء قشي: قسنطينة في عهد صالح باي البايات، منشورات ميديا بلوس، قسنطينة، الجزائر، 2005، ص 69.

أما الباي محمد الكبير 1779م-1796م، فأسس هو الآخر المدارس، و شيد المساجد و اهتم بالتعليم، و قام ببناء المدرسة المحمدية التي فتحت أبوابها لشرائح واسعة من الطلبة.[1]

و يمكن أن نضيف إليهما محمد بكداش في القرن 18م، الذي كان شاعرا و خطيبا و واعظا و عالما محبا للعلم و العلماء، مهتما بمرافق العلم من مدارس و معاهد و مؤسسات ثقافية أخرى. و كان يتبادل الخطابات و الرسائل مع علماء عصره، و منهم عالم مدينة عنابة الكبير و مرابطها أحمد بن قاسم بن محمد ساسي البوني.[2]

و على هذا الأساس، فقد كانت المدارس الابتدائية إحدى أهم المؤسسات الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، و كان عددها كثيرا، و ذلك عكس المعاهد العليا أو المدارس العليا التي كانت قليلة العدد.

5- المكتبات

كان الجزائريون من أكثر الأمم اهتماما و عناية بالكتاب و المكتبات قبل العهد العثماني و اثنائه. و ليس أدل على ذلك من أن الكتب و المخطوطات و المكتبات كانت من الممتلكات الثمينة التي يخشى عليها أصحابها من التلف و الضياع خلال فترات الأزمات و الفتن و التهديدات الأجنبية، حيث كان أول ما يفكر فيه أصحاب الكتب إذا حدثت غارة أجنبية أو تنبؤوا بوقوعها هو تهريب الكتب و إبعادها إلى أماكن بعيدة و آمنة حتى لا تطالها أيادي الغزاة.

فقد كتب عبد الرحمان الثعالبي (1384م-1471) دفين مدينة الجزائر رسالة إلى أحد تلاميذه في نواحي بجاية و هو محمد بن أحمد بن يوسف الكفيف، و التي كانت في الأصل

[1] صالح فركوس: " الباي محمد الكبير و بعث الحركة الثقافية"، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر، العدد 71، عام 1982، ص 17.

[2] أبو القاسم سعد الله: " أربع رسائل بين باشوات الجزائر و علماء عنابة"، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الإعلام والثقافة بالجزائر، العدد 51، العام 1979، ص ص 13-19.

ردا على رسالته التي بعثها له يستشيره فيها حول نقل كتبه إلى منطقة زواوة. فوافقه على ذلك إلا أنه اشترط عليه عدم نقلها بعيدا من مكان وجودها مبررا ذلك بأن الأعداء يرومون السيطرة على المدن فقط، و لا يتجشمون عناء البحث عن الكنوز و الممتلكات الثمينة خارج المحيط العمراني للمدينة، حيث حدته قائلا: "... فقد و قفت على كتابكم و أنتم تستشيروني (كذا) في نقل كتبكم إلى زواوة، خوفا من عدو الدين أن ينزل بساحة المسلمين، فأعلم رحمك الله أن نقلها من الحزم و لكن إلى ما قرب عنكم من الأماكن، لأن العدو دمرهم الله (كذا)، إنما مقصدهم المدن..."[1]

و عندما أحكم الفرنسيون سيطرتهم على الجزائر عام 1830م، اندهش الباحثون الذين كانوا يرافقون الجيش الفرنسي من كثرة الكتب و المخطوطات التي كانت تزخر بها المدن الجزائرية و خاصة المدن الكبرى مثل قسنطينة التي وجدوا فيها أعدادا لا تحصى من المخطوطات الثمينة إثر احتلالها عام 1837. و لم يتمكن محافظ مكتبة الجزائر السيد " بربروجر" "Berbrugger" من جمعها بصورة كاملة حيث نجح في تسليم مكتبة الجزائر حوالي 700 مخطوط أنقذها من الضياع و الإتلاف. و قد حدثنا المستشرق الفرنسي " دي كلان" "Declane" الذي كلف بمهمة رسمية استهدفت زيارة المكتبات الخاصة بقسنطينة عام 1845م عن أربع مكتبات خاصة، الأولى و هي الرئيسية لعائلة الفقون التي كانت تضم 2500 مخطوط أغلبها يتعلق بأصول الدين و الفقه، أما المكتبة الثانية فهي ملك لعائلة باشتارزي، و قد كانت تحتوي على 500 مخطوط، و هي الأخرى متخصصة في أصول الدين و الفقه، بينما المكتبتان الآخرتان فكانتا تحتويان على عدة مخطوطات تخص علوما

[1] أبو القاسم سعد الله: أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، المجلد الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005، ص 208.

شتى. و أشار هذا المستشرق كذلك في تقريره إلى وجود 500 مخطوط توجد بأرياف قسنطينة.[1]

و قد اشتهرت الجزائر خلال العهد العثماني بحركة نسخ الكتب و ضرب الخطوط التي كان لها أخصائيون لهم باع طويل في جودة الخط. و قد اشتهرت مدينة قسنطينة بسيدي أحمد العطار الذي حدثنا عنه داعية السلفية عبد الكريم الفكون و قال عنه بأنه كان "... معروفا بالضرب على الخطوط حتى أنه يقال بموته انقطعت مادة ذلك..."[2]

هذا و قد غصت مكتبات الجزائر خلال ذلك العهد بالكتب إلا أنها كانت تقل و تكثر تبعا لأهمية الوقف الذي يمولها، و أمانة الوكيل الذي يشرف عليها، و كذا عدد سكان المدينة الذين يقيمون بها. و هكذا اشتهرت الجزائر بعدة مكتبات منها مكتبة الجامع الكبير بالعاصمة و مكتبة المدرسة الكتانية بقسنطينة، و مكتبة المدرسة المحمدية في معسكر. يضاف إلى ذلك المكتبات الخاصة بالزوايا مثل مكتبة زاوية الشيخ التازي بوهران، و مكتبة زاوية القيطنة بمعسكر، و مكتبة زاوية آقبو بالقبائل، و مكتبة زاوية الخنقة بسكرة [3]، و مكتبة الزاوية البكرية بإقليم توات التي خلف لنا فيها مؤسسها الشيخ البكري بن عبد الكريم الكثير من المخطوطات التي سهر هو شخصيا على نسخها[4]، و غيرها من المكتبات التي كانت منتشرة في كامل أرجاء البلاد.

و كان وقف الكتب يخضع لتراتيب و إجراءات دقيقة و هي تلك التي كان معمولا بها بصفة عامة في الأوقات الأخرى. و قد درجت العادة أن عقد الوقف كان ينص صراحة على أن الكتاب تم وقفه في سبيل الله على طلبة المؤسسة الثقافية التي يوجد بها، كما كان

---

[1] جيلالي صاري: " مخطوطات قسنطينة و مصيرها بعد سقوط المدينة في سنة 1837م"، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة و السياحة بالجزائر، العدد 80، عام 1984م، ص ص 154، 155.

[2] عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص 92.

[3] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، المرجع السابق، ص 298.

[4] فرج محمود فرج : المرجع السابق، ص 96.

ينص على تحجير نقل و إخراج الكتب الموقوفة خارج المؤسسة الموجود فيها.[1] و كانت معظم الكتب الموقوفة في المكتبات تخص الحديث و الفقه، كما كانت تشمل أيضا المصاحف، و كتب الأدعية و الصلوات.[2]

هذا ما يمكن قوله باختصار عن المكتبات التي اشتهرت بها الجزائر خلال العهد العثماني، و لا نود أن نتوسع في ذلك كثيرا، و في ختام حديثنا عن المؤسسات الثقافية التي كانت بالجزائر عهدئذ، نقول أن هذه المؤسسات كانت وسيلة من وسائل نشر التعليم في الجزائر أكثر مما كانت موجهة لنشر الثقافة بمدلولها الواسع و الدارج بين عامة السكان. فالمساجد و الزوايا و الرباطات و المدارس و المعاهد العليا و المكتبات كانت كلها تتقاطع و تشترك في مباشرة هذه المهمة التي تؤخذ كحجر الزاوية و كمعيار لقياس درجة تعلم و تمدن و تحضر الشعوب و الأمم. و إذا كان النشاط التعليمي و الثقافي الذي يسود في كل بلد يرتكز بالأساس على هذه المؤسسات المذكورة، فإن الجزائر كانت خلال العهد العثماني في مصاف البلدان المتطورة في هذا المجال بمقياس ذلك العصر. و قد تحقق ذلك بفضل جهود الأفراد و المؤسسات الخيرية لأن رجال السلطة العثمانية لم يكن لهم أي دخل في هذا المجال، و لم يتجشموا عناء الاهتمام بتشييد هذه المؤسسات إلا في القليل النادر لأن انشغالهم المركزي كان ينصرف إلى المحافظة على الاستقرار السياسي و حماية الحدود و جباية الضرائب التي أثقلت كاهل السكان في أحيان غير قليلة. و لكن هل هذه المهام السيادية تبرر عدم التفات رجال السلطة العثمانية إلى هذا الجانب؟.

ليس هناك ما يسوغ هذا الانحراف، فعدم اهتمام السلطة العثمانية بالحقل الثقافي و العلمي شكل إحدى جوانب قصور السياسة العثمانية في الجزائر، خاصة و أن الجزائر كانت

[1] Ch.Leclerc : « Inscriptions Arabes de Mascara : Mosquée d'Ain Beidha », in R.A n°4, Années 1859/1860, p 43.

[2] Ch.Brosselard : « Les Inscriptions Arabes de Tlemcen : Mosquée de Mohamed Ben Youcef Snouci », in R.A n° 5, Année 1861, p 323.

حينئذ قد انجبت العديد من العلماء الذين نبهوا الحكام العثمانيين إلى محاسن الاهتمام بالثقافة و العلوم مثل حمدان بن عثمان خوجة الذي وضع رسالة سماها " إتحاف المنصفين و الأدباء في الاحتراس من الوباء" عالج فيها أسباب الأوبئة و الجوائح التي عصفت بالجزائر في ذلك الحين و طرق معالجتها و الوقاية منها بما فيها طريقة أو أسلوب " الكرانتينة" أي الحجر الصحي، و فيها أيضا دعوة إلى التجديد و نبذ التزمت، لأنه كان يدعو الحكام العثمانيين و لو بطريقة غير مباشرة إلى الاهتمام بالعلوم و الاقتداء بالأمم الأوروبية التي حاربت هذه الأوبئة بإجراءات احترازية، إذ أن " ... الفرنج قد التزموا غاية الاحتراز، فلم تطرق ساحتهم حتى زعموا أن لهم عمرا طبيعيا يبلغونه..."[1] و وافقه في الرأي معاصره محمد بن محمود ابن العنابي الذي ألف كتاب " السعي المحمود في نظام الجنود". فبالرغم من أن الأفكار الواردة فيه عبارة عن دعوة إلى التجديد في المسائل الحربية و المسائل السياسية، إلا أننا نلمس في ثناياه أيضا دعوة غير مباشرة و بطريقة مرنة و سلسلة لا تثير امتعاض الحكام العثمانيين إلى الاستعارة من الحضارة الغربية ما تفتقر إليه حضارتهم حتى لا تقع الجزائر و معها العالم العربي و الإسلامي فريسة للاستعمار الأوروبي و تقدم لقمة سائغة له، و فيه أيضا دعوة إلى معرفة العلوم و التعمق فيها لتلافي الأسقام و الأوبئة.[2]

غير أن رجال السلطة العثمانية صمت أذانهم عن سماع هذه النداءات التي تنم عن " غيرة وطنية" أو " حس قومي أو وطني أو ديني" لبعض علماء الجزائر الذين تألموا لرؤية الحالة العلمية و الثقافية للجزائر و هي تتخبط في حمأة الخرافة و الدجل و التفسيرات الخرافية و الميتافيزيقية للظواهر الطبيعية و الأشياء، في وقت كانت فيه أوروبا تحتكم للعقل و المنطق، و

[1] حمدان بن عثمان خوجة: إتحاف المنصفين و الأدباء في الاحتراس من الوباء، تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم ، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1968، ص 47.

[2] محمد بن محمود ابن العنابي: السعي المحمود في نظام الجنود، تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم، م.و.ك، الجزائر، 1983، ص

تعرف نهضة علمية و عقلية حقيقية، و ثورة صناعية ذات سرعة متسارعة كانت قد عبدت الطريق أمام الظاهرة الاستعمارية التي وجهت أنظارها إلى البلدان التي كانت خاضعة للدولة العثمانية، و التي كان يصطلح على تسميتها في قاموس السياسة الدولية حينئذ بـ " الرجل المريض"، و مع ذلك فإن ضمائر الحكام العثمانيين أبت أن تستيقظ لتصويب هذا الانحراف.

III- التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني

إن أهم ما ميز العهد العثماني في الجزائر هو انتشار التصوف و الطرق الصوفية و ما ارتبط بهما من كثرة الأولياء و تنوع كراماتهم. و قد أشرنا سابقا في معرض كلامنا عن مؤثرات الحياة الثقافية إلى هذا الموضوع. أما الآن فسنعرض بشكل موجز لأهم الطرق الصوفية التي عرفتها الجزائر عهدئذ و موقف العثمانيين منها، كما سنحاول الإلمام بسلوك بعض المتصوفة، و أخيرا نختم هذا الموضوع بالحديث عن الأولياء و الكرامات.

1- الطرق الصوفية و موقف العثمانيين منها

تعددت الطرق الصوفية في الجزائر إبان الحقبة العثمانية، و أشهر هذه الطرق بحسب تاريخ ظهورها هي:

- **الطريقة الشاذلية 658 هـ (1258م)**

تنسب هذه الطريقة إلى مؤسسها الشيخ الحسن علي الشاذلي المولود بمدينة سبتة بالمغرب الأقصى، و المتوفي عام 1258م، و يدعى بالشاذلي نسبة إلى شاذلة و هي قرية في تونس، و قد دخلها و استقر بها و هو صبي يافع،[1] و أخذ العلم على يد الشيخ عبد السلام بن مشيش تلميذ أبي مدين شعيب كبير المتصوفة، لذلك تعرف ببلاد المغرب بالطريقة المدينية نسبة إليه. هاجر الشيخ أبو الحسن علي الشاذلي إلى المشرق العربي، و

[1] محمد نجيب الراهم: أبو الحسن الشاذلي الولي: سيرته مقامه و زواره، نشر و توزيع مكتبة العجيلي بزغوان، الطبعة الأولى، زغوان، تونس، 1987، ص 24.

هناك قضى نحبه بمصر. و تقوم الطريقة الشاذلية على عدة أسس أهمها التقوى و اتباع السنة النبوية القولية و الفعلية، و الرضا بما قسمه الله على العباد، و العودة إلى الله في السراء و الضراء.[1]

- **الطريقة العيساوية (936 هـ / 1526م)**

تأسست هذه الطريقة بمدينة فاس المغربية على يد الشيخ محمد بن عيسى، و هي فرع من فروع الطريقة الشاذلية. و لهذه الطريقة أوراد و أذكار و أدعية خاصة، و تعتمد هذه الطريقة على عنصر التهريج، حيث يطلق مريدوها الصراخ و يضربون على الطبل و الناي إلى درجة التشبع و فقدان الوعي، و القيام بحركات غريبة تثير فضول الناس و تجلبهم إلى حضور حفلاتها، و كانت هذه الطريقة على توافق تام مع السلطة العثمانية، لذلك كانت زواياها معفاة من دفع الضرائب لأنها كانت تساهم في تخذير الشعب بدلا من تنويره، خاصة و أن أنشطتها الرئيسة كانت لا تخرج عن دائرة الوعدة و الرقص و الاختلاط و ممارسة الشعوذة و نحو ذلك من السلوكات غير الحميدة.[2]

- **الطريقة الطيبة (1089 هـ / 1678م)**

نشأت هذه الطريقة في إقليم وزان بالمغرب الأقصى على يد الشيخ عبد الله الشريف المتوفى عام 1678م. و بعد وفاته تولى أبناؤه و أحفاده الزاوية التي كانت مقرا لهذه الطريقة. غير أنها ازدهرت على يد أخيه الشيخ الطيب، لذلك أصبحت تعرف بالطريقة الطيبية، و الطيبية تستمد أصولها من الشاذلية، و أساس الذكر فيها هو تكرير الصلاة على النبي سيدنا محمد عليه الصلاة و السلام أربعا و عشرين و مائة و ألف مرة كل يوم و ليلة. و رغم أن

[1] سعيد مراد: الفرق و الجماعا ت الدينية في الوطن العربي قديما و حديثا، عين للدراسات و البحوث الإنسانية و الاجتماعية، مصر، 1997، ص ص 533، 534.

[2] أحمد مريوش و آخرون: المرجع السابق، ص 109.

هذه الطريقة لم تثر ضد السلطة العثمانية، إلا أن الحكام العثمانيين كانوا يتوجسون منها خيفة، و لا يطمئنون لها بسبب ارتباطاتها السياسة بالمغرب الأقصى.[1]

- **الطريقة الحنصالية (1114 هـ / 1702م)**

تأسست الطريقة الحنصالية على يد الشيخ يوسف الحنصالي الذي اختلفت المصادر في تحديد أصله. فمنهم من يرجعه إلى أصول مغربية [2] و منهم من يقول أنه من نواحي قسنطينة. و تقوم الحنصالية على ذكر الله بطريقة فردية، و يردد أتباعها عبارة " أستغفر الله" و الشهادة مائة مرة. و عند صلاة الصبح يستغفرون الله خمسين مرة، و يكررون الشهادة مائة مرة، و يعيدون ذلك عند صلاة المغرب. و لم تكن هذه الطريقة على علاقة ودية مع السلطة العثمانية حيث ثار أشهر رجالها ضد العثمانيين. و قد أخذ بها بعض علماء و أعيان مدينة قسنطينة منهم عائلة العطار التي أنجبت أحمد المبارك العطار المدرس و المفتي و صاحب كتاب حاضرة قسنطينة.[3]

- **الطريقة الكرزازية الأحمدية (1608م)**

تأسست هذه الطريقة بمنطقة كرزاز في الجنوب الغربي الجزائري على يد الشيخ أحمد بن موسى الحسني الإدريسي، الذي توفي عام 1608م عن عمر ناهز 106 سنة، و قد قضى حياته الطويلة في خدمة هذه الطريقة. و تقوم الطريقة الكرزازية على الأسس نفسها و المبادئ التي تقوم عليها الطريقة الشاذلية لاسيما فيما يتعلق بطريقة الذكر المتبعة، إلا أنها تختلف عنها من حيث أن أتباعها يرددون البسملة 500 مرة في اليوم.[4]

---

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق ص ص 523، 524.

[2] أحمد مريوش و آخرون: المرجع السابق، ص 108.

[3] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 526.

[4] Gouvrnement Général de L'algérie, Service des Liaisons Nord-Africaines : Les Confréries Religieuses en Algérie, 1951, P 100.

– الطريقة الشيخية (1630م)

و تعرف هذه الطريقة أيضا بطريقة أولاد سيدي الشيخ الذين لهم نسب شريف يتصل بالخليفة أبي بكر الصديق ــرضي الله عنهــ لذلك يعرفون بالبكرية و بالصديقية، و لهم رابطة بالبكريين و الصديقيين الموجودين في مصر و الشام.[1]

و من أجدادهم المعروفين الشيخ عبد القادر بن محمد المعروف بسيدي الشيخ الحائز على البركة و المتوفى عام 1630م، و مؤسس زاويتهم في البيض. و بعد وفاته نشب خلاف بين أبنائه الكثيرين فانقسموا إلى فريقين: الفريق الأول استقر شرق ضريح والدهم بينما استقر الفريق الثاني غربه. فعرف الأول بأولاد سيدي الشيخ الشراقة، بينما عرف الثاني أولاد سيدي الشيخ الغرابة.[2]

و خلال العهد العثماني أنشأ أولاد سيدي الشيخ قيادة شاسعة في جنوب البايلك الغربي استقلت عن السلطة المركزية و وصل نفوذها إلى عمق التراب المغربي.[3] و قد سيطر أولاد سيدي الشيخ على جزء هام من تجارة القوافل التي كانت تتم مع إفريقيا جنوب الصحراء، فتضاعفت أرباحهم و بالتالي قويت شوكتهم الأدبية و ازداد نفوذهم الديني و المادي، الأمر الذي دفع بالبايات إلى إقامة علاقات معهم مبنية على الاحترام المتبادل دون الحصول على ضريبة، خاصة و أن مداخيلهم كانت تفوق مداخيل البايات[4]، لذلك قيل

[1] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000، ص 179.

[2] Lous Rinn : op.cit, p 352, 353.

[3] Djilali sari : l'insurrection de 1881-1882, centre national d'études historiques, S.N.E.D, Alger, Algérie, 1981, p 29.

[4] Louis Rinn : « Le Royaume d'Alger sous le dernier Dey », in R.A n° 41, Année 1897, p 125

عنهم أنهم كانوا مزيجا بين أهل الدين و الدنيا، و أنهم وظفوا نفوذهم الروحي و منبتهم الشريف لحصد الأتباع و الحصول على مكاسب الدنيا.[1]

– الطريقة القادرية (1125 هـ/ 1714)

تأسست هذه الطريقة على يد الشيخ أبو صالح عبد القادر الجيلاني (470هـ–562هـ) (1078م–1167م)، الذي ولد في منطقة جيلان بجبال كركوك شمال العراق، ثم استوطن بغداد، و ألف طريقته الصوفية القادرية خلال القرن 6هـ/12م [2]، و قد وصلت هذه الطريقة إلى الجزائر عن طريق قطب الصوفية الشيخ شعيب بومدين الذي نشر مبادئها في بجاية بعد زيارته للمشرق العربي، و تعرفه على الشيخ عبد القادر الجيلاني الذي قرأ عليه في الحرم كثيرا من علوم الحديث، و ألبسه الخرقة و نقل له الكثير من أسراره و كان أول من أسس فرعا لهذه الطريقة بالجزائر هو الشيخ مصطفى بن مختار الغريسي عام 1785م[3] الذي شيد لها زاوية و هي الزاوية المعروفة بزاوية القيطنة قرب معسكر.[4]

يقرأ أهل القادرية سورة الفاتحة بعد الصلوات الخمس المفروضة، و يصلون جماعيا على النبي سيدنا محمد عليه الصلاة و السلام مائة و واحدة و عشرين مرة، و يرددون عبارة: (سبحان الله و الحمد لله و لا إله إلا الله و الله أكبر) مائة و واحدة و عشرين مرة كذلك، ثم يقرؤون سورة ياسين.[5]

أما عن علاقة القادرية بالعثمانيين، فقد اتسمت في البداية بالود، ويبدو أن ذلك مرده أن سلطان القسطنطينية كان حاميا لهذه الطريقة في المشرق العربي. غير أن هذه العلاقة

---

1 أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 180.

2 يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 440.

3 أبو القاسم الحفناوي: تعريف السلف برجال الخلف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1983ن ص 182.

4 أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 521.

5 أحمد مريوش و آخرون: المرجع السابق، ص ص 99، 100.

سرعان ما اضطربت بسبب امتعاض العثمانيين من الطرق الصوفية عامة و نقمتهم على زعمائها.[1]

– الطريقة الرحمانية 1794م

أسسها محمد بن الحاج عبد الرحمان القشتولي الزواوي الأزهري بمنطقة القبائل الكبرى، زاول تعليمه الابتدائي بزاوية الشيخ الصديق بن اعراب بآيت إيراثن، ثم حج بيت الله الحرام، و أكمل تعليمه في الأزهر، و استقر بالمشرق العربي نحو ربع قرن أخذ فيه العلم على يد أساتذة أزهريين مشهورين، و قيل أنه تلقى تعاليم الطريقة الخلواتية التي أمر بنشرها في إقليم دارفور بالسودان والهند. و عند عودته أسس الزاوية الرحمانية التي كانت قبل وفاته أكبر زاوية موجودة في الجزائر. و بعد وفاته عام 1794م سمي عبد الرحمان بوقبرين، و لهذه التسمية قصة غريبة و طريفة في الوقت نفسه. فعلى إثر وفاته قام أهله بدفنه بمقبرة الزاوية التي أنشأها، غير أن العثمانيين نقلوا جثمانه إلى الجزائر العاصمة خوفا من يتحول مكان دفنه إلى معقل للانتفاضات، فشاع هذا الخبر بين الناس، و اتخذ بعدا خياليا حيث قيل أن جثة سيدي عبد الرحمان انشطرت إلى جثتين: الأولى بقيت بآيت اسماعيل بالقبائل، و الثانية انتقلت إلى الجزائر العاصمة، لذا سمي سيدي عبد الرحمان بوقبرين.

و يردد الرحمانيون اسم الجلالة (الله) بصورة جماعية و تدريجية إلى أن يصلوا إلى حالة " الحال" و هي أعلى درجات الانجذاب و الوجد يرددها المتحلقون بقيادة شيخهم أو مقدمهم. أما أوراد أهل الرحمانية فتتمثل في التعوذ من الشيطان الرجيم، و الاستغفار و التشهد و قراءة الفاتحة و بعض الأدعية. و من تعاليم الرحمانية كذلك ذكر الله كثيرا آناء الليل و أطراف النهار، و تكرار الشهادة لمدة ستة أيام في الأسبوع من عصر يوم الجمعة إلى

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 522.

عصر يوم الخميس، و هكذا طول حياة المريد.[1]

– الطريقة التيجانية (1813م)

تأسست هذه الطريقة في نهاية القرن 18م على يد الشيخ أبو العباس أحمد بن محمد المختار التيجاني المولود بعين ماضي عام 1757م[2]، و الذي قام برحلات عديدة في سبيل طلب العلم، حيث سافر إلى فاس، و مكة المكرمة لأداء مناسك الحج، و درس بالقاهرة، ثم عاد إلى تونس و منها انتقل إلى عين ماضي مسقط رأسه، لينتقل بعد ذلك مجددا إلى تلمسان و فاس أين أخذ العلم على يد علماء ينتمون إلى طرق صوفية مختلفة. و من فاس دخل أحمد التيجاني إلى الجزائر و تجول في مناطق الصحراء و تلمسان و البيض و عين ماضي. و أعلن أنه رأى في منامه نبي الخلق سيدنا محمد عليه الصلاة و السلام يأمره بدعوة الناس إلى التخلي عن كل الطرق الصوفية المتبعة، فجمع الأنصار و الأتباع، الأمر الذي أثار حفيظة العثمانيين الذين تخوفوا منه فنغصوا عليه حياته. و نتيجة لذلك اتجه إلى فاس عام 1798م رفقه إبنه محمد الكبير، فمنحه السلطان مولاي سليمان قصرا أقام فيه رفقة أهله و أتباعه، و استقر هناك إلى أن قضى نحبه عام 1813م.[3]

و يؤاخذ بعض الباحثين الطريقة التيجانية عدة مآخذ منها أن مؤسسها كان متطرفا في أفكاره عندما أعلن أنه أمر من النبي ــ صلى الله عليه و سلمــ أن يترك كل الطرق كما

---

[1] للمزيد من المعلومات حول هذه الطريقة ينظر:

– إدوارد دونوفو: الإخوان، دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة و تحقيق كمال فيلالي، دار الهدى للنشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2003، ص ص 69-71.

- Andrien Delpech : « Un diplôme de Mokeddem de la Confrérie Religieuse Rahmania », in R.A n° 18, Année 1874, pp 418-429.
- Mouloud Gaid : Mokrani, voir l'annexe n° 16 : Note sur la Confrérie Rahmania, Editions Andalouses, Alger, Algérie, 1993,pp 203-214.

[2] L.Arnaud : « Histoire de l'Ouali Sidi Ahmed el Tidjani, Extrait du Kounache », in R.A n°5, Année 1851, p 468.

[3] Louis Rinn : Marabouts et Khaouan, op.cit, pp 418-423.

قدمنا، و إعلانه كذلك أنه يمنح الغفران لمن رآه و لمن رأى من رآه! فكل هذه المسائل و نحوها نفرت الناس منه و من طريقته، و أحدثت لغطا و سجالا، و أوقعت الناس كذلك في جدل باطل طائل و سقيم، بل هناك من اتهمه بالالحاد مثل الأمير عبد القادر الذي قال عنه و عن التيجانيين إجمالا: " و أما ما ارتكبه هو و أصحابه من البدع في الدين، فقد فاق أمرهم أن يجوز للملحدين، و لو قصصنا عليك ما اطلعنا عليه من معتقداتهم الفاسدة، لقال العالم : هؤلاء أحق بإسم الملاحدة"[1]

[1] العيد مسعود: المقال السابق، ص ص 12، 13.

و هذه المسألة تعد من مسوغات اصطدام الأمير عبد القادر بهذه الطريقة في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر، و التي لا نود الخوض في تفصيلاتها حفاظا على انسجام الموضوع الذي ندرسه.[1]

[1] يذكر محمد نجل الأمير عبد القادر أن حدود الدولة التي كان والده يريد إنشاءها لمواجهة الفرنسيين وصلت "... في الجنوب إلى القفر فيما وراء وادي سوف، حيث مجالات التوارك من بقايا الملثمين.. [1]، لذا شرع الأمير عبد القادر يراسل أعيان الصحراء و منهم محمد الصغير التيجاني شيخ الطريقة التيجانية طالبا منه التعاون معه لمحاربة الفرنسيين، إلا أنه امتنع بحجة أنه " ... إذا كان الله جل جلاله هو الذي جلب الفرنسيين إلى الجزائر، فهو المؤهل و القادر دون سواه على دحرهم و رميهم في البحر، إذا رام ذلك، و أن قدرته تغنيه عن أذرع التيجاني الفقير إلى ربه و الذي لا يملك القوة و النفوذ، و يفضل حياة الهدوء و الدعة و العبادة..."."[1] و تبعا لذلك جهز الأمير عبد القادر حملة عسكرية لتأديبه و سار بها يوم 12 جوان 1838م، و بعد عشرة أيام من السير وصل إلى قصرعين ماضي مقر زاويته [3] و فرض عليها حصارا محكما دام ستة أشهر كاملة، انتهى باستسلام محمد الصغير التيجاني في 1838/11/22م. و كان الفرنسيون يتتبعون بإهتمام بالغ أخبار هذا الحصار، بل إنهم كانوا يشجعون استمرار العداوة بين التيجانيين و الأمير عبد القادر، و يؤلبون كل طرف ضد الآخر، و ليس أدل على ذلك من أنهم كانوا يقدمون يد المساعدة للأمير ليجهز على خصمه حيث أهداه حاكمهم العام الماريشال (فالي) (Valée) ثلاثة مدافع مزودة بالذخيرة، و نلمس اهتمام الفرنسيين بهذا الموضوع من خلال مراسلات الحاكم العام للجزائر أنذاك، حيث لا تكاد تخلو مراسلة موجهة إلى مسؤوليه خلال مدة الحصار دون الإشارة إلى هذا الحصار الذي يخدم بالأساس المشروع الكولونيالي الفرنسي.[4]

1 محمد بن عبد القادر الجزائري: تحفة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر، الجزء الأول، شرح و تعليق ممدوح حقي، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، 2007، ص 358.

2 Colonel Trumelet : «Notes pour servir à L'histoire de l'insurrection dans le sud de la province d'Alger en 1864 », in R.A n° 21, année 1877, p 255.
- Voir Aussi : Louis Rinn : op.cit p 426.

3 محمد بن عبد القادر الجزائري: المصدر السابق، ص 351.

4 حول هذا الموضوع ينظر خاصة:

- Georges Yver : Correspondance du Maréchal Valée, Tome II (Juin-Décembre 1838), Éditions la Rose, Paris, France, 1950. Voir notamment les Correspondances suivantes :
- Lettre du maréchal Valée au ministre de la guerre, datée le 20 juillet 1838, pp 77-80.
- Lettre du Maréchal Valée au ministre de la Guerre, datée le 27 Juillet 1838, pp 89-91.
- Lettre du Ministre de la guerre au maréchal Valée, datée le 08 Aout 1838, pp 107-109.
- Lettre du Maréchal Valée au ministre de la Guerre, datée le 24 Aout 1838, pp 120-126.
- Lettre du Maréchal Valée au ministre de la Guerre, datée le 07 Septembre 1838, pp 149-153.

– الطريقة الدرقاوية

تأسست هذه الطريقة بالغرب الجزائري على يد الشيخ محمد العربي الدرقاوي عام 1805م، في وقت وهنت فيه أوصال الجزائر العثمانية، و هي إحدى فروع الطريقة الشاذلية، و هناك من يرى أن هذه الطريقة انشقت عن الطريقة الأم (الشاذلية)، بسبب مخالفتها لها في تعاليم الحياد و التسامح في المجال السياسي. و تنسب لأتباعها بعض الطقوس منها حمل العصا و الرقص على ذكر إسم الجلالة (الله) و حمل السبحة، و المشي حفاة، و تحمل الجوع، و عدم مخالطة الناس إلا أهل الصلاح و التقوى و الإكثار من الصدقات. و قد تفرعت عن هذه الطريقة عدة طرق أهمها الطريقة الهبرية التي أسسها الشيخ البوديلمي و هي منتشرة بشكل مركزي في الغرب الجزائري و خاصة في مدينة تلمسان.[1]

هذه هي إذا أهم الطرق الصوفية التي عرفتها الجزائر خلال العهد العثماني، و قد عرفنا أن علاقتها بالسلطة العثمانية كانت تختلف من طريقة لأخرى، فمنها من كانت مساندة لها، و منها من كانت صاحبة موقف وسط بحيث أن زعمائها كانوا " يعظون" الحكام العثمانيين عندما يرون منهم ما لا يليق و منها من ناصب العداء لهم، و جاهرهم بالجفاء، إلا أن ما يمكن ملاحظته في هذا الصدد أن رجال التصوف كانوا قد رحبوا في البداية بقدوم العثمانيين إلى الجزائر، لأن الدين كان المسوغ الأول لظهورهم بالجزائر، و بالمقابل كان العثمانيون يشعرون أيضا بأن أقر الناس إليهم هم رجال الدين المتصوفة و أهل الصلاح و التقوى، و على هذا الأساس، فقد تعامل معهم الحكام العثمانيون في البداية بسلاسة، لاسيما و أن هذه الطرق لم تكن غريبة عن ثقافتهم، بل كانت تلعب دورا مركزيا في فتوحات جيوشهم خاصة في منطقة الأناضول.[2]

---

[1] أحمد مريوش و آخرون: المرجع السابق، ص 106.

[2] صالح عباد: المرجع السابق، ص 24.

و يبدو أن هذه المعادلة ما فتئت أن تغيرت لاسيما في نهاية العهد العثماني، حيث حازت معظم هذه الطرق على كراهية الحكومة العثمانية عندما ثارت ضدها. مثل ثورة الطريقة الدرقاوية عام 1805م، و كذلك ثورة الطريقة التيجانية عام 1826م، و قد كان العثمانيون غلاظا شدادا مع الثائرين، حيث فرقوا جموعهم بوحشية لا مثيل لها، و انتقموا منهم انتقاما أرعن. و تذكر المصادر المعاصرة لتلك الأحداث أن باي الغرب مثلا انتهج أساليب رهيبة في القتل و التنكيل بجثث الدرقاويين مثل الشنق و قطع الأعضاء الحساسة من جسم الثائرين الذين كان يلقى عليهم القبض أحياء، و نزع العيون و نحو ذلك من الأساليب الهمجية.[1]

و إلى جانب ذلك نكل العثمانيون بالثوار التيجانيين حيث قطعوا رؤوسهم و وزعوها على المدن و أرسلوا رأس الحاج محمد التيجاني رفقة بعض الرؤوس الأخرى إلى مقر السلطة المركزية بالجزائر العاصمة، حتى تكون عبرة لمن تسول له نفسه الثورة ضد السلطة العثمانية، و لم يكتفوا بهذا العمل الهمجي ضد محمد التيجاني و جماعته، بل أرسلوا سيفه إلى السلطان العثماني محمود خان.[2] تلك هي بالذات سياسة العثمانيين تجاه الطرق الصوفية التي شقت عصا طاعتهم و ناصبتهم العداء، و كان الأجدر بهم ألا يعاملوهم بتلك الطريقة الوحشية، بل يستمعون لآرائهم و يشاورونهم في أمور الدين و الدولة، و يشاركوهم في حكم البلاد، حتى و لو كانت لهم آراء تختلف و تتناقض مع آرائهم لأن الأهم من هذا كله هو التعاون و التعاضد على خدمة الصالح العام و الدين الإسلامي الذي يجمع بينهما و تكثيف الجهود لصد المخاطر الأجنبية التي كانت تتربص بالجزائر حينئذ.

[1] محمد بن يوسف الزياني: دليل الحيران و أنيس السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم و تعليق الشيخ المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2013، ص 295.

[2] أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر: مذكرات، تحقيق أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980، ص 160.

2- سلوك بعض المتصوفة

صنف الباحثون رجال الدين في الجزائر خلال العهد العثماني إلى ثلاثة أصناف: صنف العلماء و الموظفين المستقلين البعيدين عن التصوف العملي، و صنف العلماء الذين غلب عليهم التصوف، و صنف المتصوفة الذين يدعون العلم و الولاية. و المتصوف الحقيقي هو الذي تتوفر فيه شروط قد تبدو خيالية أو على الأقل صعبة المنال مثل معرفة كتاب الله و سنة رسوله و العمل بهما، و الجمع بين العلم و العمل، والسعي الدائم إلى معرفة الله، و التقوى والورع و العمل، والسعي المحمود و الدائم إلى معرفة الله و التدبر في خلقه، و التجرد من هوى النفس و أدران الدنيا و نحو ذلك. و قد توفرت هذه الشروط في بعض علماء الجزائر خلال العهد العثماني مثل عبد الرحمان الثعالبي، و محمد بن يوسف السنوسي، و عبد الرحمان الأخضري و غيرهم. و بالموازاة مع ذلك ظهر أشخاص آخرون كانوا يدعون دعوات ضالة، الأمر الذي ساعد على انتشار الخرافة و الدجل و حلول السحر محل العلم.[1]

و قد تصدى شيخ الإسلام و داعية السلفية عبد الكريم الفكون لهذه الفئة و سماهم الدجاجلة الكذابين و المتشدقة و المبتدعة الضالين المضلين، و ذكر لنا العديد منهم مثل قاسم بن أم هاني بمنطقة نقاوس الذي كان كثير الصيام و الصلاة، و يأكل طعام الشعير و يتقشف في لباسه، و أشاع عنه أتباعه خوارق و كرامات كثيرة منها أنه يبرئ من العاهات و من قبائحه المأثورة "... أنه إذا رأى أو سمع عند أحد من أهل رعاياه بفرس تعجبه أو بغل أو نحو ذلك مما هو في غاية الحسن ينزل عليه و يقول ذلك الشيء هو لي فإياك و بيعه أو إخراجه لغيري... حتى يأتيه فيأخذه إما مجانا و إما بثمن بخس و إما يفرقون له ثمنه رعاياه عليهم..."، و إذا امتنع صاحبها هدده الشيخ بنكبة تناله أو مصيبة تصادفه، تدبر له من قبل زبانيته ثم تنسب له [2]، لاسيما و أن له أتباع و "فقراء" كثر في قسنطينة و ضواحيها

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 487، 488.

[2] عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص ص 118-121.

تراهم "... يرقصون و يشطحون و لعابهم يسيل و ربما يتضاربون...". و من خطاياه أيضا أنه أنكر التأثير لله، و ادعى أنه هو الذي بيده التصرف! و قد كان أتباعه يدفعون الرشى إلى رجال السطلة العثمانية لكي يصرفوا عنه النظر و لا يضايقوه.[1]

و تحدث الفكون عن أحد مشايخ و أصحاب الطريقة في عنابة و منطقتها، و لم يكن هذا الشيخ سوى الشيخ طراد، الذي حارب شطرا من قبيلته، و كان غليظا فظا مع الناس و لا سيما مع معارضيه الذين أكل أموالهم بالباطل. و قيل أنه كان يأخذ النساء المحصنات، و لا يعتد بذوات العدة، و مع ذلك كان يتبجح و يفتخر بأنه قطب الولاية اهتم به الفكون كثيرا و حير باله، فتحدث عنه بشيء من الأسى و اعتبره عدو من أعداء الله لأنه كان يخشى على المسلمين الهلاك ببدعته، فقد كان لصا من اللصوص بل كان كبير المتلصصة، ثم أنه تاب إلى الله و صار من أهل الصفوة و الولاية، فصدقه الناس لاسيما أجلاف البوادي، و من شدة اهتمامه به و خوفه من بدعه و أفكاره الضالة فقد رأى في منامه أن بدعته سقطت و لا خوف على المسلمين منه.[2]

و يضيف الفكون أن الشيخ طراد كان له تلميذان هما عبد الكافي و أبو عبد الله محمد ساسي البوني، و كان هذا الأخير يدعى أنه من أكابر الأولياء و أنه شرب من كأس الصفوة و كان يجمع بين الفقه و الإفتاء و التصوف، و قد باشر مهام التدريس في جامع سيدي أبي مروان، إلا أنه كان يقول شعرا و يذكر فيه الخان و الدنان أي الخمر، و كانت "...قصائده التي تكاد الجبال أن تدك لسماعها دكا... و تَمُجُّ سَمَاعَهَا الآذانُ..."، و مما استفاض عليه أيضا أنه جعل في منزله مستحما سماه حمام أهل الصفا، و فرض جباية على كل طفل في مدينة عنابة و أريافها، كما فرض جباية أخرى على أهل الأندلس القاطنين بالمدينة. و قد جاءه رجل من أهل المغرب يدعى علي خنجل كان قاصدا المشرق، و كان

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 476.

[2] عبد الكريم الفكون: المصدر السابق، ص ص 161-163.

يزعم أنه شيخ المشائخ، فالتف به الناس و على رأسهم محمد ساسي و أقيمت له "... ليالي من آلات و تصفيق و شطح و إنشاد، و ما مثلهم إلا كنادي جماعة الشرب في زعقاتهم و آلات طربهم و لهوهم الذي يجعلونه بابا لدخول الحضرة...". و قد أقام له محمد ساسي البوني حفل توديع بهيج و حمله على كتفيه إلى السفينة و هو ينشد الأشعار و الناس يردون عليه و كان "... علي خنجل يزجل بزجوله، و كل يصفق و يشطح... و عين المولى ناظرة و حِلْمه يسع الخلائق...".

و قد غضب منه الفكون غضبا شديدا و اتهمه بالكفر و الخروج عن جادة الإسلام، خاصة و أنه كان "... يزعم في قصائده أنه عرج به إلى السماء، و كشف له عن أحوال الملكوت، فهذا — و العياذ بالله– كفر صريح و مضاهاة لنبيه..."[1]

و الغريب أن أهل مدينة عنابة و أريافها كانوا يرون فيه العصمة و الصلاح، و يعتقدون أنه رئيس علم الظاهر و الباطن، و كان مسموع القول عند الخاصة و العامة، و لكن وجه الغرابة ينتفي إذا علمنا أن علاقته كانت ودية مع الحكام العثمانيين الذين كانوا يعتمدون عليه و على سائر المتصوفة وقت الشدة، و نعني بذلك وقت الثورات التي كان سكان الأرياف يعلنونها ضد السلطة العثمانية، فيتدخل هؤلاء بإيعاز من العثمانيين لتهدئة خواطر الناس و تبرير التصرفات الخرقاء لهؤلاء الحكام، فكانوا بذلك وسيلة لتخذير عامة الناس، و هذا ما يفسر حرص العثمانيين على تمتين علاقتهم بهؤلاء المتصوفة. فقد كان الباشاوات يتبادلون الرسائل و خطابات الود و المجاملة مع (علماء عنابة) و يستشيرونهم كذلك في عظائم شؤون الدولة.[2]

---

[1] المصدر نفسه: ص ص 164، 165.

[2] حول هذا الموضوع ينظر:

- أبو القاسم سعد الله: " أربع رسائل بين باشاوات الجزائر و علماء عنابة"، المقال السابق، ص ص 45-62.
- أبو القاسم سعد الله: تجارب في الأدب و الرحلة، م.و.ك، الجزائر، 1983، ص ص 45-62.

و ما يجب معرفته في هذا السياق أنه لم يكن كل المنتسبين إلى الولاية على النحو الذي سقناه، فقد كان فيهم الخيرون الصالحون مثل الشيخ بلغيث العالم و الفقيه الذائع الصيت في قسنطينة و تونس، فقد كان يستعمل الموسيقى (السماع الصوفي)، إلا أنه كان في الوقت نفسه يبني الزوايا، و يفعل الخير و يحارب الشر، و ينفق أمواله لفك أسر المسلمين الذين يقعون أسرى لدى النصارى، و كان أيضا يقوم بترميم المساجد، و تفريج كرب الفقراء و المساكين.[1]

3- الأولياء و الكرامات

لا يكتمل الحديث عن التصوف في الجزائر خلال الحقبة العثمانية دون التطرق إلى ظاهرة الأولياء و كراماتهم، فإذا كان العالم الإسلامي قد تميز بانتشار الخرافة في عصور الانحطاط، فإن هذه الظاهرة كانت أبعد غورا و أقوى تأثيرا على عقول الناس في منطقة المغرب الإسلامي، و قد يكون من المبالغة القول أنه لو لم يكن نبي الخلق سيدنا محمد ـعليه الصلاة و السلامـ خاتم الأنبياء و المرسلين، لظهر في المنطقة أيام انحطاط عصورها رسل و أنبياء يدعون النبوة، فكأن هذه المنطقة اجتهدت في التعويض عن حرمان أرضها من الرسل و المعجزات باصطناع الأولياء و الكرامات و خوارق العادات. ذلك أن بعض الأولياء إدعوا أو نسبت لهم كرامات و خوارق لم يظهرها الرسل و الأنبياء في معجزاتهم.

إن الذي يستقرئ تاريخ الجزائر مثلا اعتبارا من القرن 13م يلاحظ أن الناس كانوا يربطون ا لظواهر الطبيعية و الأحداث الاجتماعية و السياسية بكرامات الأولياء أو بدعائهم و رضاهم و غضبهم، و يهوله أن يجد أن الخرافة كانت تحكم قبضتها على حياة الناس و توجه تفكيرهم، و تحدد نظرتهم إلى الظواهر و الأشياء. و الحقيقة أن هذه الظاهرة لم تكن تقتصر على العهد الإسلامي فحسب، بل شملت أيضا العهد العثماني برمته حيث ازدادت

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الأول، المرجع السابق، ص ص 493،494.

فيه قوة و عمقا و انتشارا، إذ كثر الأولياء و تنوعت كراماتهم التي امتدت حتى بعد وفاتهم، فأحيطت أضرحتهم بهالة من القداسة لدرجة أن المجرم الذي يلجأ إليه يكون آمنا مهما كانت خطورة الجرم الذي اقترفه.[1]

و كانت النساء تزرن قباب هؤلاء المرابطين بانتظام، و تضعن عليها مختلف القرابين، و تشعلن الشموع و المصابيح، و هن يعتقدن أن ذلك سيبعد عنهن النكبات و المصائب الاجتماعية والعائلية.[2]

و قد حدثنا حمدان بن عثمان خوجة حول هذه المسألة، فقال: " ... فحتى بعد موتهم يبقى هؤلاء المرابطون محل توقير دائم، و تدفن أجسامهم في قبر يحاط بتابوت يمكن أن يلجأ إليه كل مجرم، و بالتالي فإن المكان يصبح موقرا لدرجة أن الإبن لا يجرأ على اقتحامه لمطاردة قاتل أبيه..."[3]

و لو أن هذه الظاهرة كانت منحصرة في أوساط الدهماء و عامة الناس لهان الأمر، و لوجدت لها تبريرا و تسويغا في ضعف المستوى الثقافي و العقلي. و لكن الأخطر من هذا أن هذه الظاهرة مست نخب المجتمع و علية القوم و طبقة العلماء الذين كانت لهم قدم راسخة في العلم و المعرفة. و السؤال الذي يطرح في هذا المضمار هو لماذا انساق هؤلاء العلماء وراء هذا التيار المنحرف؟ و لماذا غرقوا هذا الغرق الشنيع في بحر الخرافة؟ و ما قيمة العلم الذي لم يلجم صاحبه عن الزيغان و قول الحقيقة؟

يجيبنا عن ذلك الأستاذ العيد مسعود الذي درس و خبر هذا الموضوع، و يقدم لنا عدة أسباب أبرزها:

---

[1] العيد مسعود: المقال السابق، ص ص 19، 20.

[2] وليم سبنسر: الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب و تعليق عبد القادر زبادية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980، ص 105.

[3] حمدان بن عثمان خوجة: المرآة، تقديم و تعريب و تحقيق محمد العربي الزبيري، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982، ص 57.

- انصراف الناس عن العلماء و انقيادهم وراء الأولياء بإعتبارهم أهل الباطن، و هو الأمر الذي دفع هؤلاء العلماء دفعا إلى دراسة التصوف و استيعاب كرامات الأولياء بحثا عن مكان لهم في وسط طغت عليه الخرافة، و تبعا لذلك تحول هؤلاء إلى أصحاب علم و ولاية في الوقت نفسه.
- التنافس الشديد مع أهل الباطن أي الأولياء على حصد الأنصار و الأتباع، ذلك أن المرابطين و شيوخ الزوايا كانوا يروجون الكرامات بهدف زيادة الأنصار و النفوذ الأدبي و بالتالي زيادة مداخيل الزوايا عن طريق حبس العقارات و إيرادات الزيارة.
- انخرام المنظومة الدينية و الأخلاقية للمجتمع، و ضعف الوازع الديني و الأخلاقي عند الناس، و في ظل هذا الوضع لم يكن من السهولة بمكان إعادة العامي إلى جادة صوابه، و حثه على إتباع الطريق المستقيم، و الدين القويم إلا عن طريق أمور خارقة و محسوسة، تثير وجدانه الروحي، و تحدث في نفسه الرهبة، ثم تربطه بالله جل جلاله عن طريق الولي و المرابط.
- رغبة العلماء الجامحة في فرض نفوذهم على عامة الناس، و إرهاب ولاة الأمور لكي لا يمسوهم بسوء.[1]

و الحقيقة أن هذه الأسباب لا تبرر انسياق العلماء وراء هذا التيار المنحرف الضال و المضلل، و كان الأحرى بهؤلاء و هم علماء الظاهر أن يجادلوا و يناظروا أهل الدجل و أدعياء الولاية أو علماء الباطن، و يدحضوا دعواتهم الباطلة بالحجج الدامغة و المنطق السليم، و ينيروا دروب الناس و يدعونهم إلى التشبث بالدين القويم الذي يعتمد على العقل و يحارب الخرافة و الدجل و سائر السلوكات المنحرفة.

[1] العيد مسعود: المقال السابق، ص ص 20، 21.

و بالموازاة مع انتشار ظاهرة الأولياء، راجت كذلك الشعوذة، بسبب طغيان الجهل، و نسب الدجالون لأنفسهم الكرامات و خوارق العادات كجلب الحظ و معالجة الأسقام المستعصية مثل عقم النساء و نحو ذلك. و عن هذه الظاهرة يخبرنا الورتيلاني عن قصة غريبة مؤداها أن أحد أدعياء الولاية بمدينة بجاية كان يدعي معالجة كل امرأة عقيمة بعد أن يختلي بها! فقصدته زوجة الشيخ عبد الحق الفجيجي رفقة زوجها، و لما طلب الخلوة بها رفض زوجها و عرف أنه دجال و يمارس الرذيلة مع النساء، فأعلم العام و الخاص فأفعاله المشينة. و لما بلغ هذا الخبر مسامع حاكم المدينة أمر بقتل الشيخ عبد الحق، لأن هذا الدجال فعل بزوجته مثلمافعل بغيرها من النساء، ثم حز رأسه و علقه على باب المدينة. و عندما كان البواب يأتي عند الغروب ليغلق الباب و ينادي السكان للدخول، كان الرأس يقول: " لم يبق عبد الحق الذي مات على الحق"[1]

و بصرف النظر عن صحة أو زيف هذه القصة الغريبة، فالثابت أن الشعوذة كانت إحدى الحرف التي كان يمتهنها أدعياء الولاية بل و يتباهون بها، و كانوا يتنافسون في صنع الأحجبة و الحروز ليقدموها لعملائهم لكي يعلقوها في أعناقهم و يقنعوهم بأنها تسهل عليهم قضاء حوائجهم الدنيوية و تدفع عنهم الأسقام و المصائب.[2] و لا شك أن ذلك يعد انحرافا دينيا خطيرا، و مرضا أصاب المجتمع الجزائري خلال الحقبة العثمانية.

هكذا يتراءى لنا أن العهد العثماني في الجزائر كان عهد ضمور فكري و ثقافي، و كان عهد تصوف و طرق صوفية، و عهد ولاية و كرامة، و كان أيضا عهد صراع و حروب و قلاقل داخلية و خارجية أثرت بشكل كبير على المشهد الثقافي الجزائري، فغابت الاستراتيجية الثقافية الرسمية.

---

[1] الحسن بن محمد الورتيلاني: نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار المشهورة برحلة الورتيلاني، تحقيق محمد بن أبي شنب، مطبعة فونتانا الشرقية، الجزائر، 1908، ص 20

[2] Depond et Coppolani :op.cit, p 208

و بالموازاة مع ذلك لم يدرك الحكام العثمانيون حقيقة تحديات ذلك العصر، و هو عصر تميز بقوة الدول الأوروبية التي شهدت ثورة صناعية كبيرة، فراحت تبحث عن المواد الأولية التي تحتاجها صناعتها الناشئة، فوجدتها في أراضي الدولة العثمانية و بلدانها و ممتلكاتها. و تبعا لذلك وجهت أنظارها إلى هذه البلدان فأحتلتها و سيطرت على كل مقدراتها، و كانت الجزائر من أهم هذه البلدان التي خضعت للاحتلال الفرنسي عام 1830م و الذي كانت له دوافع سياسية و اقتصادية و اجتماعية بارزة، كما كانت له دوافع ثقافية و حضارية و دينية كذلك تجسدت في المشروع الثقافي الاستعماري الفرنسي الذي أرادت فرنسا أن تطبقه في الجزائر، و هو ما سنحاول التعرف عليه تباعا في الجزء الموالي من هذه الدراسة.

الجزء الثاني: تاريخ الجزائر الثقافي خلال الفترة المعاصرة (الفترة الاستعمارية الفرنسية)

I- الاستعمار الفرنسي للجزائر و الغزو الثقافي

1- نشر الجهل و الأمية

2- الفرنسة

3- التنصير

II- التعليم و العلماء

1- السياسة التعليمية الفرنسية

2- كبار المعلمين

3- هجرة العلماء

4- التعليم و حركة التأليف

الجزء الثاني: تاريخ الجزائر الثقافي خلال الفترة المعاصرة (الفترة الاستعمارية الفرنسية)

تعرضت الجزائر للاستعمار الفرنسي عام 1830م، و قد كان أبشع أنواع الاستعمار في التاريخ الحديث و المعاصر، لأنه لم يكن يهدف إلى غزو الأرض و ابتلاع خيراتها المادية و البشرية فحسب، و إنما كان يهدف أيضا إلى غزو الأفكار و القيم الحضارية للأمة الجزائرية من خلال نشر الثقافة الاستعمارية الغازية من لغة و دين و أفكار و قيم حضارية غربية.

و على هذا الأساس سنحاول في هذا الجزء الإحاطة بهذا الموضوع من خلال دراستنا للاستعمار الفرنسي للجزائر و الغزو الثقافي، ثم نتعرض إلى التعليم و العلماء و ندرس فيه السياسة التعليمية التي انتهجها المستعمر الفرنسي في الجزائر، و كبار المعلمين و هجرتهم إلى الخارج و حركة التأليف التي رافقت حركة التعليم.

I- الاستعمار الفرنسي للجزائر و الغزو الثقافي

لقد أدرك منظرو السياسة الكولونيالية الفرنسية منذ بداية الاحتلال أن مشروع الغزو الثقافي لن يتحقق إلا من خلال نشر الجهل و الأمية و إحلال اللغة و الثقافة الفرنسية محل اللغة و الثقافة العربية الإسلامية، و اتباع سياسة التنصير أي غزو الجزائر ثقافيا وفق رؤية و استراتيجية استعمارية خطط لها الفرنسيون في معرض تحضيرهم لعملية الغزو، فكيف تم ذلك؟ و ما هي معالم و مظاهر هذه الاستراتيجية؟

سنحاول تباعا ذكر بعض الأمثلة و الشواهد التاريخية عن هذا الغزو الثقافي من خلال محاولتنا التركيز على ثلاثة جوانب جوهرية تتمثل في:

- نشر الجهل و الأمية،
- الفرنسة،
- التنصير.

1- نشر الجهل و الأمية

قدمنا فيما مضى أن التعليم كان منتشرا في الجزائر خلال العهد العثماني، و كانت له مؤسسات تسير شؤونه رغم عدم اهتمام السلطة العثمانية به، و أن السواد الأعظم من الجزائريين كان يتقن القراءة و الكتابة والحساب، و قد شهد الفرنسيون على ذلك عام 1830م.[1]

و اندهشوا حينما لاحظوا أن نسبة الأمية في الجزائر كانت شبه منعدمة عام 1830م في الوقت الذي كانت فيه مستفحلة في فرنسا إذ وصلت إلى 40 **%** [2]، كما لاحظوا أيضا

[1] أندري برنيان، أندري نوشي، إيف لاكوست: الجزائر بين الماضي و الحاضر، ترجمة اسطمبولي رابح و منصف عاشور، د.م.ج، الجزائر، 1984، ص 211.

[2] Jean Monlau : Les États Barbaresques, P.U.F, 1er Édition, Paris, France, 1964, p 106.

أن الجزائريين كانوا يوقعون بالكتابة لا بالأصبع [1]، و تكلموا كذلك على ظاهرة انتشار المدارس في كل أرجاء الوطن، و أكدوا أنه لا تكاد تخلو منطقة من مدرسة، و قد قدر معدل عددها بمدرستين لكل قرية.[2]

فقد وجد الفرنسيون في مدينة قسنطينة مثلا عام 1837م، و هي سنة استيلائهم عليها 35 مسجدا، و سبع مدارس يقصدها زهاء 700 تلميذ يتلقون فيها تعليما ثانويا، كما وجدت بها أيضا 90 مدرسة ابتدائية تتسع لنحو 1350 تلميذا.[3]

كما وجدوا في مدينة تلمسان 50 مدرسة، و كانت هناك 10 جامعات تقدم دروسا في التعليم العالي منتشرة عبر مختلف أرجاء الوطن يلتحق بها الطلبة بعد إنهائهم لمرحلتي التعليم الابتدائي و الثانوي. و كانت هذه المؤسسات التعليمية تعلم النشء مختلف أصناف العلوم و تغرس فيهم مبادئ الثقافة العربية و الإسلامية.[4]

و لما لاحظت الإدارة الاستعمارية الفرنسية ذلك عملت على تحطيمها لأنها كانت تعلم جيدا أنها تشكل نواة معارضتها، و الصخرة الكؤود التي تتحطم عليها مشاريعها الاستعمارية الهادفة إلى تذويب الشخصية الوطنية و ابتلاع المقومات الحضارية للشعب الجزائري.[5]

و رغم أن الفرنسيين تعهدوا باحترام الشريعة الإسلامية و حرية السكان و ممتلكاتهم و عقيدتهم و خصوصياتهم الثقافية و الحضارية، إلا أنهم نكثوا عهودهم و أحلوا الفرنسية محل

---

[1] عبد الله شريط، محمد الميلي: المرجع السابق، ص 156.

[2] Mostefa Lacheraf : op.cit, p 21.

[3] عبد الحميد زوزو: المرجع السابق، ص 217.

[4] صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 176.

[5] Ahmed Mahsas : Le Mouvement Révolutionnaire en Algérie de la 1er Guerre Mondiale à 1954, librairie_Editions l'Harmattan, Paris, France, 1979, p 333.

اللغة العربية، و قاموا بغلق المراكز و المدارس العربية، و شددوا الرقابة على المدارس الدينية [1]، و قاموا بمصادرة الأوقاف و نفي العلماء إلى الخارج، فتراجعت حركة التعليم، و نضبت موارده، و ضعفت نسبة التمدرس في الأوساط الأهلية بشكل لافت للانتباه. و هكذا تراجع عدد طلبة مدينة قسنطينة مثلا من 600 طالب عام 1837م إلى 60 طالبا عام 1847م، كما تراجع عدد المساجد من 86 مسجدا إلى 30 مسجدا.[2]

و تراجع عدد المدارس في مدينة عنابة إلى 12 مدرسة، كما تراجع مستوى المتعلمين، حيث صرح أحد مسؤولي هذا القطاع في مدينة سطيف عام 1857م بأن حالة التعليم في وضع مزر مؤكدا أنه من بين 400 طفل يوجد منهم 20 يحسنون القراءة أما التعليم في منطقة القبائل فكان شبه منعدم، و قد امتعض أحد المسؤولين الفرنسيين من هذه الوضعية بمدينة القالة و اضطر إلى إحضار التلاميذ بنفسه حتى لا يضطر إلى غلق المدرسة التي كان يشرف على تسييرها [3]

و كانت هذه السياسة تثلج صدور صناع القرار السياسي في الجزائر و لاسيما ضباط المكاتب العربية، و منهم النقيب (ريشارد) (Richard) الذي كان يردد العبارة الآتية "... عندما يتم القضاء النهائي على المدارس القرآنية، و تصير هباء منثورا، سيتحول هذا الشعب العربي إلى شعب أمي جاهل جهالة العصور البدائية، فعندئذ سيخلو لنا الجو و سيكون من الممكن تلقينه الأفكار و المبادئ الحضارية المفيدة التي تخدم قضيتنا..."[4]

[1] عمار قليل: ملحمة الجزائر الجديدة، الجزء الأول، الطبعة الأولى، دار البعث قسنطينة، الجزائر، 1991، ص ص 96، 97.

[2] Charles-Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Tome Premier, Éditions Bouchène, Paris, France 2000, p 318.

[3] Yvonne Turin : Affrontements Culturels dans l'Algérie Coloniale : Écoles, Médecines, Religion 1830-1880, E.NA.L, 2ème Édition, Alger, Algérie, 1983, p 229.

[4] Charlse-Robert Ageron : op.cit, pp 318, 319.

و يلاحظ كذلك أن المستعمر الفرنسي قام بنهب و سلب التراث العربي الإسلامي الذي كانت تزخر به المكتبات الجزائرية كالمخطوطات و الكتب و الوثائق النادرة و نحو ذلك، و كان ضباط الجيش الفرنسي يرسلون ما يسطون عليه إلى أهلهم في فرنسا ليتصرفوا فيه بالبيع أو الإهداء.[1]

و وجد الفرنسيون عددا لا حصر له من المخطوطات الثمينة في مدينة قسنطينة عام 1837م تاريخ استيلائهم عليها، و لم يتمكن محافظ مكتبة الجزائر السيد (بربروجر) (**Berbrugger**) من جمعها بصورة كاملة، و استطاع أن يسلم إلى مكتبة الجزائر نحو 700 مخطوط فقط أنقذها من الضياع و الإتلاف.[2]

و أكد هذا الموظف الفرنسي ــالذي يبدو من خلال شهادته أنه كان يتميز بسمو الضمير لأنه كان لا ينظر بعين الرضا لما كان يقوم به جيش بلاده من استهتار بالمؤسسات الثقافية الجزائريةــ أن الجنود الفرنسيين كانوا يعتبرون كل ورقة يعثرون عليها مكتوبة باللغة العربية قرآنا**!** فيقومون بحرقها و إتلافها أو إرسالها إلى أهلهم بفرنسا في شكل هدية. و كل هذه الممارسات كانت تتم أمام عيون المسؤولين الفرنسيين الكبار، و على رأسهم قائدهم (دي بورمون) نفسه، الذي لم يشعر ألبتة بالحرج و هو يرى جنديه البسيط يشعل غليونه باستعمال الوثائق الثمينة المبعثرة.[3]

و بعد سنوات قليلة من إحكام الفرنسيين قبضتهم على الجزائر قاموا بتنصيب لجان رسمية لتدارس شؤون التعليم في الجزائر، و قد خلصت هذه اللجان إلى عدة نتائج أبرزها

---

[1] رابح تركي: التعليم القومي و الشخصية الوطنية 1931-1956، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1975، ص 94.

[2] جيلالي صاري: المقال السابق، ص 156.

[3] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص 89.

ضرورة مواصلة إهمال التعليم العربي الإسلامي، و التمسك بمبدأ عدم رد الأملاك العقارية الوقفية المسلوبة لأصحابها، و إنشاء تعليم خاص بالأهالي تدرس فيه العربية إلا أن الغلبة يجب أن تكون فيه للفرنسية و علومها. كما أوصت هذه اللجان بترك التعليم يمارس في الزوايا و المعمرات في المناطق الريفية و النائية، إلا أنها شددت على ضرورة مراقبته من حيث البرامج و المدرسون حتى لا تتحول هذه المراكز إلى بؤر معادية للفرنسيين.[1] لذلك وجه الفرنسيون اهتمامهم الكبير بهذه المؤسسات الدينية خاصة إعتبارا من عام 1849م. فبعدما كانت تقارير المكاتب العربية قبل هذا التاريخ لا تهتم بهذه المؤسسات و تصنفها في خانة الملاحظات العامة، إلا أنه سرعان ما وجهت لها اهتمامها مع نهاية هذه السنة، و منذ ذلك الوقت كانت كل مراسلات و تقارير هذه المكاتب لا تخلو من معلومات مستفيضة تخص الزوايا و الطرق الصوفية و المدرسين الذين كانوا يسمونهم الطلبة (بضم الطاء) الذين يقدمون دروسا فيها.[2]

و في هذا السياق أكد تقرير بقلم أحد الضباط الفرنسيين بعمالة قسنطينة عام 1852م أنه " ... يجب أن تبقى المساجد و الزوايا التي تقدم فيها الدروس من قبل الطلبة تحت المراقبة المستمرة الدقيقة للإدارة الفرنسية، لأن هذه المؤسسات الدينية هي مصدر كل الرزايا و البلايا والدسائس التي تحاك ضد المصالح الفرنسية من قبل المتعصبين في الجزائر، حيث يرتل فيها القرآن، و تنبعث منها الأصوات الحاقدة علينا و الداعية إلى رمينا في البحر و إعلان الحرب المقدسة ضدنا..."[3]

---

[1] صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 178.

[2] Yvonne Turin : op.cit, pp 200, 201.

[3] A.O.M : F80. 500, Affaires Arabes, Province de Constantine 1852, Cercle de Constantine pendant le Mois de Juillet 1852.

و الواقع أن توجس الفرنسيين من هذه الزوايا كان كبيرا، لذلك كانوا يتتبعون أخبارها و يقتفون آثار رجالها عن طريق أعوانهم من الجزائريين داخل القطر الجزائري كله بل حتى خارجه، فقد ذكر تقرير لرئيس القطاع العسكري القسنطيني عام 1869م أن القايد علي باي زعيم عائلة بوعكاز الذواودة المتعاونة مع الفرنسيين بالجنوب القسنطيني قام بزيارة إلى زاوية نفطة بالجنوب الغربي التونسي لجمع معلومات كافية حول أنشطة هذه الزاوية التي كانت متعاطفة مع الثوار الجزائريين بحكم انتمائها للطريقة الرحمانية المناهضة للوجود الاستعماري بالجزائر، و أنه استقبل استقبالا حسنا هناك من قبل مقدمي هذه الطريقة.[1]

و الحقيقة أن توجسات الفرنسيين من هذه الزوايا كان لها ما يبررها من الناحية العملية، فهذه الزوايا كانت هي المؤسسات الحقيقية للطرق الصوفية التي انتصبت كشوكة مغروسة في حلق الفرنسيين لأنها كانت تشكل الركيزة الأساسية لمعظم الثورات التي قامت ضد الفرنسيين، كما أنها كانت توفر الحماية والأمن للثوار، حتى لا تطالهم عيون الإدارة الاستعمارية الفرنسية.[2]

و بهذا يتراءى لنا أن الفرنسيين كانوا يفرضون رقابة على هذه المؤسسات الدينية، ليس فقط من أجل مراقبة البرامج التعليمية و رجالات التعليم، و إنما أيضا من أجل ضمان الأمن الاستعماري، مما يؤكد أن المشروع الاستعماري كان مشروعا كاملا و شاملا تقاطعت فيه العناصر الثقافية مع العناصر الأمنية الحيوية لفرنسا الكولونيالية.

---

[1] I.S.H.C.T : A.O.M, Série 25H Tunisie, Carton 25H 18 (2), Dossier N° 2, Bobine A26 : Rapport du Général de Division de la Province de Constantine à son Exellence le Maréchal de France, Gouverneur Général de l'Algérie à Alger le 15 Novembre 1869 au Sujet des Marabouts de Nafta, Folios 37, 38, 39.

[2] Annie Rey-Goldzeiguer : le Royaume Arabe. La Politique Algérienne de Napoleon III 1861-1870, ENAG Éditions, Alger Algerie, 2010, p 291.

إن المتأمل في هذه السياسة الاستعمارية التي ترجمتها التراتيب و الإجراءات التي باشرتها الإدارة الاستعمارية في مجال محاربة التعليم و التضييق عليه، يدرك بداهة أنها قامت بإطفاء أنوار العلم و اغتالت الثقافة الجزائرية، و رمتها خارج حركة التاريخ. و رغم ذلك فهي تدعى أن غزوها للجزائر كان في إطار مهمتها التمدينية الحضارية.[1]

فقد ترتب عن ذلك استفحال ظاهرة الأمية، و تحولت الأغلبية الساحقة من الجزائريين إلى أميين، حيث ارتفعت نسبة الأمية بشكل مهول و وصلت إلى نحو 95 **%** خلال العقود الأخيرة من القرن 19 بعدما كانت لا تتجاوز 10**%** في بداية الاحتلال.[2]

و أي كان الأمر فإن هذه الوضعية الكارثية التي آل إليه حال الجزائريين في مجال التعليم، كانت منتظرة، و لم يكن من الممكن تصور سواها، خاصة و أن الفرنسيين كانوا قد خططوا لها منذ أن وطأت أقدامهم أرض الجزائر عام 1830م، و أنهم اعترفوا في محاضرهم و تقاريرهم بالرعونة و الوحشية التي ميزت سياستهم في هذا المجال منذ بداية الاحتلال. و قد شهد على هذه الفظاعة أحد منظري سياستهم، و هو القاضي (دي توكفيل) (**A.De Toqueville**) الذي كلف بتحرير محاضر المعاينة المتعلقة برصد اختلالات و جوانب القصور الخاصة بحالة التعليم في الجزائر خلال السنوات الأولى للاحتلال حيث كتب تقريرا إحتوى على عبارات قاسية قال فيه: " ... لقد أحكمنا قبضتنا على كل موارد المؤسسات الخيرية التي كانت تتكفل بحاجيات السكان في المجال الخيري لاسيما في مجال الصدقات و التعليم العمومي. لقد تركنا المدارس تتهاوى و تضمحل، و بعثرنا المحاضر و شتتناها بطريقة ممنهجة، و نتيجة لذلك انطفأت الأنوار من حولنا و عم الظلام الدامس... و هذا يعني أننا

[1] Ahmed Taleb Ibrahimi : Réflexions sur la Révolution Culturelle en Algérie : de la Décolonisation à la Révolution Culturelle, SNED, Alger, Algérie, 1973, pp 11, 12.

[2] أحمد توفيق المدني: كتاب الجزائر، المرجع السابق، ص 273.

جنينا على هذا المجتمع المسلم الذي تركناه في حالة من الجهل و الأمية و الوحشية تفوق بكثير الحالة التي كان عليها قبل أن يتعرف علينا..."[1]

هكذا نرى إذن أن سياسة التجهيل طبقت من قبل الفرنسيين بطريقة ممنهجة لأنهم كانوا يدركون جيدا أن تجهيل الشعب هو الشرط الأساسي لانجاح المشروع الكولونيالي برمته.

2- الفرنسة

لا يختلف إثنان على أن اللغة هي أساس الشخصية الوطنية لكل أمة، لأنها تعتبر روح الأمة و عرقها النابض، و أن القضاء عليها يعني بالضرورة القضاء على ذاتية تلك الأمة.[2]

و على هذا الأساس اهتم الفرنسيون بهذا الجانب، و عملوا على فرنسة الجزائر من خلال إحلال اللغة الفرنسية و ثقافتها بالجزائر محل اللغة العربية و ثقافتها. و كان الفرنسيون يهدفون من وراء ذلك إلى القضاء بصورة تدريجية على لغة الجزائريين و ثقافتهم، لأنهم كانوا يعتقدون أنه مع مرور الزمن سينسى الجزائريون لغتهم و ثقافتهم و يستعيضون عنهما باللغة الفرنسية و ثقافتها تماما مثلما حصل في عدد كبير من البلدان التي تعرضت لغزو استعماري كان مصحوبا بعملية غزو ثقافي و فكري مركز و موجه بشكل منهجي، حيث نسيت شعوب هذه الدول لغتها و ثقافتها و عوضتهما بلغة وثقافة الدولة الاستعمارية الغالبة مثل الهنود الحمر في أمريكا الشمالية و معظم شعوب أمريكا اللاتينية و بعض شعوب البلدان الإفريقية.[3]

---

[1] Charles-Robert Ageron : op.cit, p 318.

[2] محمد طه بدوي: دراسات سياسية و قومية، منشأة دار المعارف، الاسكندرية، مصر، د.ت.، ص ص 86، 87.

[3] صالح بن نبيلي فركوس : المرجع السابق، ص ص 180، 181.

و الواقع أن سياسة الفرنسة التي انتهجها المستعمر الفرنسي في الجزائر كانت قد مست مختلف المجالات و خاصة مجال التعليم في مختلف مراحله و برامجه من مناهج دراسية و نظم تعليمية و كتب مدرسية و لغة تدريس و إدارة تعليمية و توجيه و إشراف عام، إضافة إلى مجالات الحياة الاجتماعية و الثقافية و الإدارية الأخرى في البلاد، و كان هدف الفرنسيين من وراء ذلك هو محاولة إضفاء الطابع الفرنسي الخالص على كل ميادين الحياة العامة للجزائريين من أجل القضاء على الروابط التي تربطهم بثقافتهم و لغتهم القومية، و تاريخهم الإسلامي و انتمائهم الحضاري إلى الأمة العربية حتى تنشأ الأجيال الجزائرية وفقا لهذه الخطة الاستعمارية مبتورة من جذورها الأصلية، الأمر الذي يسهل على المستعمر الفرنسي السيطرة على الشعب الجزائري الذي يصبح أسهل انقيادا لفرنسا و أكثر قابلية لنتائج السياسة الفرنسية.[1]

و من أجل تطبيق هذه السياسة على أرض الواقع، اتبعت الإدارة الاستعمارية عدة إجراءات أبرزها:

- إحلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية في مختلف مجالات حياة الجزائريين، حيث أصدر وزير الداخلية الفرنسي قرارا عام 1838م، اعتبر بمقتضاه اللغة العربية لغة أجنبية في الجزائر**!**، و قد ترتب على ذلك بداهة تحجير تدريسها في مختلف المدارس الرسمية أو الشعبية إلا بصفتها لغة أجنبية.
- غلق كل المراكز الثقافية والمدارس الرسمية والمعاهد والزوايا التي كانت تدرس اللغة العربية عبر كل جهات التراب الوطني.[2]
- فرنسة الإدارة فرنسة كاملة تماشيا مع السياسة العامة لمشروع الفرنسة.

[1] رابح تركي: المرجع السابق، ص 105.

[2] عمار قليل: المرجع السابق، ص 97.

- محاربة حركة التعليم العربي الحر، و وضع شروط تعجيزية أثناء منح رخص التعليم للهيئات و رجال التعليم، الأمر الذي أدى إلى غلق عدد غير قليل من المدارس و النوادي والمساجد التي كانت تمارس هذا النوع من التعليم.
- تقسم اللغة العربية إلى ثلاث لغات: عربية فصحى، و عربية عامة، و عربية حديثة، ثم تقرر منع تدريسها نهائيا في المدارس الابتدائية، و جعلها لغة اختيارية في مرحلة التعليم الثانوي.
- إلغاء تدريس جغرافية الجزائر من البرامج الدراسية الرسمية الموجهة للطلبة و التلاميذ الجزائريين و الاستعاضة عنها بتدريس جغرافية فرنسا بهدف القضاء على الروح الوطنية في نفوسهم.[1]

- محاولة تشويه تاريخ الجزائر العربي الإسلامي بهدف زرع الشك حول انتمائها العربي الإسلامي، و في هذا الإطار كان التلميذ الجزائري يتلقى دروسا في مادة التاريخ تناقض الحقيقة التاريخية كأن يقال له بأن الجزائر كانت تسمى بلاد الغال و أن أجداده هم الغاليون، و كان يتلقى دروس التاريخ التي كان يتلقاها التلميذ الفرنسي في مقاطعة نورموندیا الفرنسية[2]، كما أن اهتمام المؤرخين و علماء الآثار الفرنسيين كان منحصرا في البحث عن تاريخ الجزائر تحت هيمنة الاحتلال الروماني و في عهد الاحتلال الفرنسي دون سواهما أي أنهم أهملوا عن قصد تاريخ الجزائر الطويل خلال الفترة الإسلامية، و كان غرض الفرنسيين من وراء ذلك هو محاولة إيهام الجزائريين و إقناعهم بأن بلادهم الجزائر هي بلاد فرنسية في حاضرها و مستقبلها و رومانية في ماضيها.[3] و كأنه قدر على هذا

[1] رابح تركي: المرجع السابق، ص ص 101-106.

[2] نقولا زيادة: صفحات مغربية، دار الطليعة، بيروت، لبنان، 1956، ص 311.

[3] رابح تركي: المرجع السابق، ص ص 102-106.

البلد وفقا لهذه النظرة ألا يكون له كيان مستقل بذاته نتيجة لعجز تاريخي حتمي (**Inaptitude Congénitale**)، حيث كان دوما جزءا من كيان آخر، ففي القديم كان جزءا من الإمبراطورية البونيقية، ثم جزءا من الإمبراطورية الرومانية، و في الفترة الحديثة كان ولاية عثمانية، و أخيرا ألحق بفرنسا الوريث الشرعي لروما في إطار الاحتلال الفرنسي[1]، و من المؤرخين الفرنسيين الذين يتبنون هذا الطرح الأستاذ "غوتييه" "**Gautier**".[2]

إن الجزائر وفقا لهذه الرؤية كانت منطقة فراغ حضاري، تنتفي فيها شروط الشعب المتماسك و الأمة المتكاملة، لأنها لم تكن سواء منطقة جغرافية يتعاقب عليها الحكام و الملوك و الأمراء و تعيش على أرضها القبائل المتناحرة و المتنابزة التي لا تخضع إلا للقوة والترهيب[3]، ضف إلى ذلك أن الجزائر كان ينظر إليها وفقا لهذا المنظور على أنها جزء من الغرب المسيحي اغتصب من طرف الشرق الإسلامي في مناسبتين هامتين: الأولى عند الفتح الإسلامي في القرن 7م الميلادي، والثانية مع ظهور العثمانيين و تأسيس إيالة الجزائر في القرن 16م.[4]

هذه أهم الإجراءات التي باشرتها الإدارة الاستعمارية الفرنسية في سبيل فرنسة الجزائر في مختلف مجالات الحياة، وكان تركيزها على اللغة العربية لأنها هي وعاء الدين الإسلامي و

---

[1] مولود قاسم نايت بلقاسم: شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل 1830، الجزء الثاني، دار البعث للطباعة و النشر، ط1، قسنطينة، الجزائر، 1985، ص 285.

[2] عبر "غوتييه" عن وجهة النظر هذه بالعبارة الآتية:

- « On lui a souvent attribué cette incapacité du Maghreb à se constituer en état durable » E.F. Gautier : op,cit, p 10.

[3] أبو ا لقاسم سعد الله: " منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر"، الأصالة مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، العدد 14، 15، عام 1973، ص 35.

[4] ناصر الدين سعيدوني: المرجع السابق، ص 35.

الهوية الوطنية، و إحدى الدعائم الأساسية للشخصية الوطنية، لذلك فقد عملت على محاصرتها و إقصائها بصورة تدريجية من الحقل اللغوي.[1]

و هذا ما يفسر أن معظم القوانين و التشريعات التي سنها المشرع الفرنسي من أجل تنظيم الشؤون العامة للجزائر في صدر الاحتلال كانت كلها تركز على المسألة اللغوية، من ذلك مثلا جاء في إحدى التعليمات مايلي: " إن إيالة الجزائر لن تصبح حقيقة "مملكة فرنسية" إلا عندما تصبح لغتنا هناك لغة قومية، والعمل الجبار الذي يترتب علينا إنجازه هو السعي وراء نشر اللغة الفرنسية بين الأهالي ــبالتدريجــ إلى أن تقوم مقام اللغة العربية الدارجة بينهم الآن"، كما ورد في تقرير رسمي عام 1849م مايلي: " لا ننسى أن لغتنا هي اللغة الحاكمة، و أن قضاءنا يجب أن يصدر أحكامه على العرب الذين يقفون في ساحته بهذه اللغة التي يجب أن تصدر بها جميع البلاغات الرسمية، و بها يجب أن تكتب جميع العقود، و ليس لنا أن نتنازل عن حقوق لغتنا. إن أهم الأمور التي يجب علينا الاهتمام بها قبل كل شيء، هو السعي وراء جعل اللغة الفرنسية دارجة و عامة بين الجزائريين الذين عقدنا العزم على استمالتهم إلينا، و تمثيلهم بنا، و إدماجهم فينا، و جعلهم فرنسيين".[2]

و يبدو أن هذه السياسة حققت جانبا من أهدافها، حيث أدت إلى تراجع مستوى اللغة العربية. و الدارس لكتابات محمد الصالح العنتري كتاريخ بايات قسنطينة مثلا يدرك بداهة الأسلوب الركيك الذي كتب به هذا الكتاب، و ذلك يمثل مظهرا من مظاهر الوهن الذي وصلته اللغة العربية في منتصف القرن 19م نتيجة للسياسة الفرنسية.[3] و رغم ذلك

---

[1] Nadjia Benachour : «Dire Constantine ou la dernière, impression », in Expressions, Revue de l'Institut des Langues Etrangères, Université de Constantine, Spécial Colloque Malek Haddad, Janvier 1994, p 50.

[2] عبد الرحمان البزاز: هذه قوميتنا، دار القلم، الطبعة الثانية، القاهرة، مصر، 1964، ص 118.

[3] ابو القاسم سعد الله: أفكار جامعة، م.و.ك، الجزائر، 1988، ص 73.

بقي الأهالي متمسكين بلغتهم لأنها تشكل رمزا لهويتهم و ملاذا لكل رافض لسياسة الإدماج [1]، ضف إلى ذلك فقد رفضوا إرسال أبنائهم إلى المدارس الفرنسية باعتبارها " مدارس شيطانية" لأن ارتيادها كان في نظرهم يعني قبول ديانة الفرنسي" الكافر".[2]

و الواقع أن هذا الموقف تبنته كل شرائح المجتمع الجزائري بما في ذلك الأعيان و النخب و العائلات الكبرى التي نسجت علاقات متينة مع الإدارة الاستعمارية [3]، و كان الأهالي يفضلون إرسال أبنائهم إلى المدارس القرآنية و بعض المراكز التي يتعلمون فيها بعض الحرف لأن هذه الأماكن تسمح للأولياء بمراقبة أبنائهم و حمايتهم من كل تأثير عقائدي و أخلاقي[4]، لاسيما و أن الفرنسيين كانوا ينشطون من أجل نشر الأفكار المسيحية بين الأهالي الجزائريين و يعملون جاهدين على تنصيرهم.

3- التنصير

يعتبر الاحتلال الفرنسي للجزائر عام 1830م تتويجا لصراع حضاري يعود بجذوره إلى عهد الصراع التقليدي القائم بين العرب و الروم و الإسلام و المسيحية، والشرق و الغرب[5]، ذلك أن الحملة التي شنها الفرنسيون على الجزائر عام 1830م، كانت قد بوركت

---

1 Abdallah Mazouni : Culture et Enseignement en Algérie et au Maghreb, Éditions Maspero, Paris, France, 1968, p 59.

2 H.Benbarkat : « A propos de l'Algérie et ses Populations de J.P Durand et H. Tengour », in Cirta, Revue Historique et Sociologique, Publiée Périodiquement par l'Institut des Sciences Sociales de l'Université de Constantine, n° 8, 9, Année 1983, p 19.

3 Ahmed Mahsas : op.cit, p 335.

4 Omar Carlier et Autres : Lettrés, Intellectuels et Militants en Algérie 1880-1950, O.P.U, Alger, Algérie, 1988, p 147

5 أبو القاسم سعد الله: خلاصة تاريخ الجزائر: المقاومة والتحرير 1830-1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2007، ص 15.

من قبل الكنيسة و بابا الفاتيكان لأن الفرنسيين أكدوا لرجال الكنيسة أنهم سوف يشعلون أنوار الصليب بالجزائر و يطفؤون أنوار الهلال بها.[1]

و إذا كان مبدأ الفصل بين الدين و الدولة من المبادئ المستقرة في الحياة السياسية الفرنسية منذ نجاح الثورة الفرنسية عام 1789م، فإن ما قامت به الكنيسة في المستعمرات و منها الجزائر يتناقض مع ذلك تماما.[2] و هو التناقض الذي لاحظه مستشرق فرنسي، و أحد كبار المبشرين و هو " أوجين بور" "**Eugène Bore**" الذي كتب كتابا من سوريا عام 1837م أشار فيه إلى التناقض الواضح بين سياسة الحكومة الفرنسية اللائكية في فرنسا و مساندتها الواضحة لحركات التبشير في المشرق الإسلامي.[3]

و الواقع أن الجزائر لم تتعرض عام 1830م إلى احتلال عسكري مدجج بمختلف أسلحة الفتك و الدمار المعروفة حينئذ فحسب، و إنما تعرضت بالموازاة مع ذلك إلى احتلال آخر لم يكن مدججا بالسلاح كالجيش الأول، و إنما كان يدعي نشر السلام و المحبة، و نعني به جيش المبشرين الذي عضد جيش الاحتلال و ساعده على تحقيق مقاصده الاستعمارية.[4] و الدليل على ذلك أن رجال الدين المسيحيين في أوروبا كانوا يتواصلون مع نظرائهم الذين أرسلوهم إلى الجزائر، و يؤكدون لهم على ضرورة خدمة المشروع الاستعماري الفرنسي، فقد كتب البابا التاسع خطابا إلى (الكاردينال لافيجري)* بالجزائر قال له فيه: "

---

[1] أبو القاسم سعد الله: الحركة الوطنية الجزائرية 1830-1900، الجزء الأول، المرجع السابق، ص 16.

[2] اسماعيل العربي: الصحراء الكبرى و شواطئها، م.و.ك، الجزائر، 1983، ص 109.

[3] الحبيب الجنحاني: " حركة التبشير و السياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي في القرن التاسع عشر"، الأصالة مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، الجزائر، العدد 16، عام 1979، ص 27.

[4] رابح تركي: عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981، ص 42.

* ولد شارل مارسيل لافيجري عام 1825 بفرنسا، تابع دراسات أكاديمية عليا في المسيحية، و تحصل على درجة الدكتوراه في علم اللاهوت، شغل منصب أستاذ التاريخ الكنسي بكلية اللاهوت بجامعة السوربون (1856-1854) ثم باشر مهام أسقف

إن الأمر لا يتعلق فحسب بالديانة المسيحية، و لكن أيضا بالدولة الفرنسية التي يجب أن تخدموها أنتم و أتباعكم"[1]

فهدف الاستعمار الفرنسي في الجزائر لم يكن بسط الهيمنة الفرنسية على الجزائر، و جعل إقليمها فرنسيا فحسب، و إنما كان يهدف كذلك إلى غزو الأفكار و نشر الدين المسيحي، و إذا كانت مهمة غزو الأرض من اختصاص المؤسسة العسكرية، فإن مهمة غزو الفكر كانت من مشمولات الكنيسة [2]، و من هذه الزاوية، فقد تجند رجال الدين المسيحي لتحقيق هذا الغرض في الجزائر.

كانت سياسة التنصير تشكل حجر الزاوية في المشروع الاستعماري الفرنسي، و ليس أدل على ذلك من التصريحات التي كان قادة الاحتلال الفرنسي و رواده يصرحون بها، من ذلك مثلا التصريح الذي أدلى به أمين سر الحاكم العام للجزائر عام 1832م، حيث قال: " إن آخر أيام الإسلام قد دنت، و في خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح **!** و نحن إذا أمكننا أن نشك في أن هذه الأرض تملكها فرنسا، فلا يمكننا أن نشك على أي

Evêque مدينة نانسي الفرنسية عام 1863م، بعدها انتقل إلى الجزائر ليشغل منصب مطران Archevêque أي رئيس أساقفة بالجزائر العاصمة عام 1867م، و بهذا يكون قد عاصر سنوات القحط و المسغبة والجوائح و الكارثة الديمغرافية التي عصفت بالجزائر في تلك الفترة، و التي استغلها للتبشير للديانة المسيحية، وكان الساسة الفرنسيون معجبين به لأنه خدم المشروع الكولونيالي أيما خدمة، لذلك قلدوه وسام ضابط فرقة الشرف عام 1886م، قضى نحبه بالجزائر العاصمة عام 1892م.

حول هذه الشخصية الدينية ينظر:

- Annie Rey-Goldzeiguer : op.cit, p 771.

[1] محمد الطاهر و علي: التعليم التبشيري في الجزائر 1830-1904، دراسة تاريخية تحليلية، منشورات دحلب، الجزائر، 1997ن ص 254.

[2] عبد القادر حلوش: "حركة التنصير في الجزائر عهد الاحتلال"، مجلة الرؤية، المركز الوطني للدراسات والبحث في الحركة الوطنية و ثورة أول نوفمبر 1954، العدد 1، عام 1996، ص 118.

حال بأنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد"[1]، و قد صرح " الدوق دي روفيغو" " **Le Duc De Rovigo**"[2] في بداية الاحتلال: " يلزمني أجمل مسجد في المدينة لنجعل منه معبدا لإله المسيحيين" و صرح الجنرال (بيجو) "**Bugeaud**" الذي حارب الأمير عبد القادر: " إن الجزائريين لن يكونوا فرنسيين إلا إذا كانوا نصارى"[3]، و كان يجمع الأطفال اليتامى و يقدمهم إلى القس و يقول له: "حاول يا أبتي أن تجعلهم مسيحيين و إذا فعلت فلن يعودوا إلى دينهم ليطلقوا علينا النار".[4]

و قد وجد المبشرون في الكوارث الطبيعية و الظروف المأساوية التي مرت بها الجزائر خلال سنوات الستينات من القرن 19م ثغرات ينفذون منها لتحقيق أهدافهم في تنصير أبناء

---

[1] صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 181.

[2] كان " الدوق دي روفيغو" رابع حاكم عسكري فرنسي للجزائر (1833/03/1831-03/12/06)، و قد اقترن ذكر إسمه في كتب التاريخ بمجزرة العوفية قرب وادي الحراش حينما أمر جنده بتصفية أفرادها في ليلة 6 إلى 7 أفريل 1832م عندما كانوا مستسلمين لنوم عميق، و تنفيذا لهذا الأمر قام الجنود الفرنسيين بتصفية أفراد هذه القبيلة الأبرياء عن بكرة أبيهم بطرق وحشية لا يقوى اللسان على وصفها، حيث قطعوا رؤوسهم و ثبتوا البعض منها على رؤوس أسلحتهم، وسلبوا كل ما ملكت أيادي أفرادها، وما تبقى من الأسلاب عرضوه في سوق باب عزون بالعاصمة، و قد صدم الناس و بقوا مشدوهين حينما رأوا أساور النساء و هي مشدودة إلى أيادي مقطوعة و مخضبة بالدماء و أقراطا ذهبية ملتصقة بآذان صاحباتها، والغريب أن القيادة الفرنسية استقبلت بارتياح كبير نبأ هذه الجريمة و أصدرت بيانا في 1832/04/08 باركت فيه هذا العمل الشنيع.

حول ذلك ينظر:

- Anonyme : « Histoire de l'Algérie. Liste chronologique » : in R.A n° 31, Année 1887, p 428.

جيلالي صاري: " إبادة قبيلة العوفية بوادي الحراش"، الثقافة مجلة تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر، العدد 77، عام 1983، ص ص 125-128.

[3] عمار قليل: المرجع السابق، ص 99.

[4] أحمد الخطيب: الثورة الجزائرية، دراسة و تاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان،1957، ص ص 118، 119.

الجزائر، فنشطت الكنيسة و حاولت إحياء أمجاد و ذكريات القديس أوغسطين و مآثر الإمبراطورية الرومانية المحتضرة.[1]

و قد تزعم حركة التبشير الديني في الجزائر (الكاردينال لافيجري) الذي أنشأ هيئة دينية عرفت بـ (الآباء البيض).* و اتخذ من الجزائر العاصمة مقرا رسميا لها، و صرح قائلا: " علينا أن نجعل من الأراضي الجزائرية مهدا لدولة مسيحية تضاء أرجاؤها بنور مدينة منبع وحيها الإنجيل... تلك هي رسالتنا الإلهية" و من أجل تحقيق هذا المشروع على أرض الواقع، زار لافيجري المناطق المنكوبة حاملا الصليب في يمينه و الخبز و الدواء في شماله، و تمكن من جمع الأطفال اليتامى و تعهدهم بالتربية في رحاب الكنيسة، وفقا لتعاليم الديانة المسيحية.[2]

و لتبرير ما كان يقوم به هذا الكاردينال، فقد ساق حجة واهية مؤداها أن هؤلاء الأيتمام فقدوا ذويهم، و لم يجدوا من يرعاهم في تلك الظروف القاسية [3]، و عندما طالب أهالي هؤلاء الأطفال باسترجاع أبنائهم، رفضت الكنيسة طلبهم، و قال لافيجري: " إنهم لي، لأن حياتهم التي يعيشون بها أنا الذي حفظتها لهم".[4]

---

[1] الطاهر أو صديق: ثورة 1871، ترجمة جباح مسعود، م.و.ك، الجزائر، 1989، ص ص 13، 14.

*أخذت هذا الإسم لأن كل أعضائها كانوا يرتدون ألبسة بيضاء تتمثل في برنوس أبيض و شاشية حمراء، و كانت هذه الجمعية من أهم البعثات المسيحية في الجزائر، أسسها الكاردينال لافيجري لمحاربة البعثات البروتستانتية التي حلت بالجزائر في ذلك الحين، و كانت مدعمة من قبل بريطانيا و دول أوروبا الشمالية.

حول هذه الجمعية ينظر:

- أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، م.و.ك، الجزائر، 1985، ص 55.

[2] أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 61.

[3] يحي بوعزيز: ثورة 1871 و دور عائلتي المقراني والحداد، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1978، ص 93.

[4] Charles-André Julien : Histoire de l'Algérie Contemporaine. La Conquête et les Débuts de la Colonisation (1827-1871), Casbah Éditions, Alger, Algérie, 2005, p 441.

و قد نشط رجال الدين المسيحيين في إقامة المدارس و المستشفيات و مراكز التبشير فيها بقصد تنصير السكان و ذلك بإيعاز من رجال السلطة الاستعمارية الفرنسية الذين بذلوا قصارى جهدهم لتنصير هذا الشعب و فرنسته و تجهيله، و قد لخص لنا المؤرخ و الجغرافي الفرنسي (غوتييه) (**Gautier**) غاية فرنسا في الجزائر حينما قال: " لقد أردنا أن نغير الجزائر من أرض شرقية إلى أرض غربية"[1]

إلا أن كل الإجراءات و الوسائل التي انتهجتها فرنسا لتحقيق هذا الغرض لم تنل من عزم الجزائريين الذين قاوموا هذه السياسة، و لم يتحولوا عن دينهم، و لم يفرطوا في لغتهم، حيث أخفقت سياسة التنصير و فشلت جهود المبشرين في هذا المجال، و هذا ما أكده (غوستوف لوبون) عالم الاجتماع الفرنسي الذي خبر و درس هذا الموضوع و توصل إلى نتيجة تؤكد ذلك حينما قال: " فأما ما يختص بالعرب، فقد استشهدت بقصة أربعة ألاف يتيم الذين تولى أمرهم الكاردينال (لافيجري) فعلى رغم تربية هؤلاء تربية مسيحية بعيدة عن كل تأثير عربي رجع أكثرهم إلى الإسلام بعد أن بلغوا سن الرشد".[2]

و بهذا يتأكد لنا أن سياسة المستعمر الفرنسي الرامية إلى غزو الجزائر ثقافيا لم يكتب لها النجاح رغم المشاريع و الامكانات المادية و البشرية التي خصصت لها، و ليس من غرضنا في هذا المقام الاسترسال في ضرب الأمثلة التي تؤكد موقف فرنسا الرامي إلى نشر الجهل و الأمية في الجزائر، و محاولة فرنسة هذا البلد، و محاولاتها العديدة تنصير الجزائريين بهدف القضاء على الشخصية الوطنية، لأن ذلك سيثقل كاهل هذه الدراسة لاسيما و أن هذا الموضوع يتطلب بحثا قائما بذاته، و إنما غرضنا هو الإشارة فقط إلى الخطوط العامة للسياسة الفرنسية في الجزائر الرامية إلى احتلال هذا البلد أرضا و شعبا و غزوه ثقافيا و

[1] Ferhat Abbas : La nuit Coloniale, Guerre et Révolution d'Algérie, Éditions ANEP, Alger, Algérie, 2006, p 22.

[2] غوستان لوبون: روح السياسة، ترجمة محمد عادل زعتر، المطبعة العصرية، جمهورية مصر العربية، د.ت، ص 169.

تذويبه فكريا و حضاريا، ذلك أن هذا الغزو كان قد شمل الانسان و الأرض و الثقافة و الدين على حد سواء.

II- التعليم و العلماء

خصصنا هذا العنصر للحديث عن السياسة التعليمية الفرنسية و الجدل الذي أثارته مسألة تعليم الجزائريين إبان الحقبة الاستعمارية الفرنسية، و هو تعليم كان مقسما إلى قسمين رئيسيين: القسم الأول و هو التعليم العربي الحر، و ينعت بالتعليم الوطني أحيانا، كما ينعت بالتعليم التقليدي أحيانا أخرى باعتباره استمرارا للتعليم الذي كان سائدا خلال العهد العثماني، و لم يمسه التطور و التحديث إلا مع ظهور الحركة الإصلاحية خلال النصف الأول من القرن العشرين. أما القسم الثاني فهو التعليم الحكومي الرسمي الذي كان متصفا بطابع التحدي الاستعماري الديني واللغوي والحضاري، و هو مقسم بدوره إلى تعليم خاص بالفرنسيين، و تعليم خاص بالجزائريين. و بالإضافة إلى ذلك سنتعرف أيضا إلى بعض كبار المعلمين، كما سنتناول موضوع هجرتهم إلى خارج الجزائر و خاصة إلى بلاد المشرق و المغرب العربي، و أخيرا نختم الكلام بالحديث عن التعليم و حركة التأليف.

1- السياسة التعليمية الفرنسية

في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر نازع مسألة تعليم أبناء الجزائر تياران متناقضان في الرأي: أولهما كان يفضل تعليم أهل الجزائر و تثقيفهم، أما الثاني فكان يناهض ذلك و يدعو إلى تجهيلهم، و غلق كل أبواب العلم و المعرفة في وجوههم. و كان دعاة الرأي الثاني من أنصار نظرية الاستعباد التي تقوم على عنصر القوة باعتبارها الوسيلة الوحيدة لإخضاع الجزائريين و إذلالهم و قهرهم اجتماعيا و تدميرهم اقتصاديا و تذويبهم فكريا و حضاريا و استغلالهم بأبشع الطرق و الوسائل الممكنة. و قد ساق أنصار هذا الرأي عدة حجج مؤداها

أنه "لما كان تعليم الوطنيين يؤدي بالجزائر إلى خطر محقق سواء من الناحية الاقتصادية أو من ناحية التعمير الفرنسي، فإن الرغبة تميل إلى إلغاء التعليم الابتدائي".

غير أن هذا الرأي لم يصمد كثيرا أمام قوة حجج مؤيدي الاتجاه الآخر الذين اعتبروا التبريرات التي قدمها خصومهم تبريرات سقيمة و تنتفي فيها الوجاهة و الحصافة و النظرة الاستشرافية، ذلك أنهم كانوا يعتقدون أن مصلحة المستعمر الفرنسي في الجزائر تقتضي تعليم أبناء الجزائر و الاهتمام بالمدرسة باعتبارها الوسيلة الفعالة لسلب الشعب الجزائري من هويته و موروثه الثقافي و شخصيته بصورة تدريجية، و أن النتائج التي يمكن لفرنسا أن تجنيها نتيجة لذلك أحسن بكثير و أكثر أثرا و أبعد مدى مما لو استعملت القوة مع هذا الشعب.[1]

و لم يكن هدف الفرنسيين من وراء فتح المدارس أمام أبناء الجزائر هو تنوير عقولهم و تعليمهم، بل كانوا يهدفون إلى تكوين فئة تلعب دور الوسيط بينهم و بين الجزائريين ليعتمدوا عليها لاختراق المجتمع الجزائري و تعميق الفكر الكولونيالي في أذهان الجزائريين، و قد عبرت عن هذه الحقيقة إحدى الوثائق الرسمية الفرنسية الموجهة إلى وزير الحربية الفرنسي عام 1839م، و التي جاء فيها "... لقد بات من الضروري إنشاء مؤسسات ثانوية في بلدان الميتروبول لتفتح أبوابها أمام أبناء العائلات المسلمة الميسورة الحال، لتعلمهم أصول حضارتنا و أخلاقنا و كل معارفنا. و إذا أردنا أن نثبت أقدامنا في هذه المستعمرة، فلا مندوحة لنا من تكوين شباب و تلقينهم معارفنا، حتى يصبحوا وسطاء نافعين بيننا و بين إخوانهم في الدين، و سيتكفلون بمهمة إعطائهم الأفكار النيرة الصحيحة عن قوة فرنسا و عظمتها..."[2]

و كان مدير مدرسة المعلمين بالجزائر من أنصار نظرية تنوير عقول الجزائريين، إذ كان ينادي بضرورة تثقيف أبناء الجزائر للاتكاء عليهم في عملية بناء المشروع الكولونيالي حيث

[1] يحي بوعزيز: السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري 1830-1954، د.م.ج، الجزائر، 1995، ص 162.

[2] Yvonne Turin : op.cit, p 63.

كتب: " ... ليس من الكرم أو الجود في شيء أن ترغب الجامعة في نشر العلم في القبيلة، بل دعونا نقولها كلمة صريحة و نطلقها مدوية، إن ذلك في صالح فرنسا وحدها، و هو ما نضعه دائما نصب أعيننا. و قد أضفى على تعليمنا طابعا خاصا، كما ساعد مدرسينا على اتباع طرقهم و وسائلهم الخاصة، كما أضفى في الوقت نفسه على برامجنا طابعها الراهن. و أنه لمن الأهميةبمكان أن نثبت في أذهان الأهالي فكرة رفيعة و نقية عن وطننا و ذلك بتلقين تلاميذنا دروسا تتناسب و أعمارهم، كما تتفق و درجة ثقافتهم عن عظمة فرنسا و جيشها و ثروتها، و ليس من شك... في أن مركزنا سيكون أقوى دعامة لو استطعنا أن ندع الأهالي يفكرون من تلقاء أنفسهم و بمحض إرادتهم و يقولون فيما بينهم: " ألاما أقوى و أكرم هؤلاء الفرنسيين، إنهم أحسن ما نود أن يكون عليه أساتذتنا". إن المدرسة الأهلية في شكلها الراهن و بعملها الخيري المزدوج ليست أداة تجديد خلقي فحسب، بل هي على وجه الخصوص أداة سلطة و سلطان و وسيلة نفوذ و سطوة، و ستخلق من رعايانا عضوا مفيدا جدا و ساعدا مخلصا لفرنسا..."[1]

و هكذا يظهر لنا مما تقدم أن المسألة لا تتعلق بنشر العلم و الثقافة والتهذيب و تنوير عقول أبناء الجزائر كما يبدو من ظاهر السياسة الكولونيالية في مجال النعليم، و لكن الغرض الاستراتيجي هو مسخ الشخصية الوطنية و إخماد الروح الوطنية من خلال تكوين وسطاء أهليين يكونون بمثابة السواعد المخلصة لفرنسا الاستعمارية لمساعدتها على تثبيت أركانها بالجزائر.

و بعد هذه النظرة العامة حول الجدل الذي أثارته مسألة التعليم في الجزائر في بداية الاحتلال، و مرامي و مقاصد السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر، نقول أن هذا التعليم الموجه أخذ مسارات مختلفة تتلخص في اتجاهين رئيسيين هما التعليم الوطني أو التعليم العربي

[1] يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص ص 162، 163.

الحر و التعليم الحكومي الرسمي، و في ما يلي سنتحدث بشيء من التفصيل على كل نوع من هذين النوعين.

أ- التعليم العربي الحر

و هو النوع الذي يحلو للبعض تسميته بالتعليم الوطني، و هو استمرار لنوع و طبيعة التعليم الذي كان يسود في الجزائر قبل الاحتلال الفرنسي أي خلال العهد العثماني. و قد كان يمارس في الزوايا التي كانت تباشر أدوارا علمية و تعليمية و اجتماعية و دينية و حتى سياسية. و قد تأثرت بالغزو الفرنسي و ما صاحبه من استيلاء على الأملاك الوقفية، و حروب المقاومة الوطنية التي اندلعت في وجه المحتل. و كانت مواد هذا التعليم تشمل القرآن الكريم، و الأصول و البيان و المنطق و مصطلح الحديث و الفقه و الحديث و السيرة و التصوف و الحساب و علم الوقت.[1]

و قد تأثر بمحاصرة الإدارة الاستعمارية للزوايا التي يقدم فيها هذا النوع من التعليم، حيث استغلوا بعض رجالها و دسوهم بداخلها للتجسس على كل ما يجري فيها، و جردوهم من الزيارات التي كان يؤديها الناس لها بإذن منهم، و مع مرور الوقت تحول هذا التعليم تدريجيا إلى تعليم يغلب عليه الطابع التعبدي الصرف.[2]

و لم تتوقف سياسة الإدارة الاستعمارية الفرنسية تجاه التعليم العربي الحر عند هذا الحد، بل حاولت التضييق عليه، فأصدرت بتاريخ 18 أكتوبر 1892م مرسوما يقضي بتحجير فتح المدارس الفرنسية إلا برخصة من الحكومة الفرنسية، و يلاحظ أن الفرنسيين اتخذوا من هذا القانون مسوغا لغلق كل المدارس التي كانت تنشط في السابق أي قبل صدور

[1] أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، المرجع السابق، ص 62.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 394، 395.

هذا القانون [1]، و هو إجراء معيب و ينطوي على خرق واضح لأحكام القانون التي تنص على إلزامية عدم تطبيق القوانين في مثل هذه الحالات بأثر رجعي، بل يكون سريانه بأثر فوري إعتبارا من تاريخ صدوره في الجريدة الرسمية.

و الحقيقة أن الفرنسيين وجدوا صعوبات كبيرة في تطبيق أحكام هذا القانون على أرض الواقع، لأن التعسف في تطبيقه فتح المجال أمام الجزائريين للتحايل على أحكامه، حيث تحول قسم كبير من تلك المدارس إلى العمل بطريقة سرية.[2]

و إذا كان الفرنسيون قد سمحوا بممارسة هذا النوع من التعليم في إطار ضيق أي الإطار الذي تحدده الرخصة التي تمنحها الإدارة الفرنسية، فإنه ليس من السهل الحصول عليها بسبب شروطها القاسية، ذلك أن الفرنسيين كانوا لا يبدون موافقتهم على فتح هذا النوع من المدارس إلا إذا روعيت عدة شروط أهمها:

- إلزامية التقيد الحرفي بأحكام مرسوم 1892م.
- ألا يتعدى عدد الراغبين في التسجيل داخل هذه المدارس ثمانية تلاميذ، مع إمكانية تخفيض هذا العدد إل تلميذين إثنين في المدرسة في بعض الحالات الاستثنائية.
- أن تجرى الدروس داخل هذه المدارس خارج أوقات التعليم في المدارس الفرنسية العامة.

و إلى جانب هذه الشروط الموضوعية، هناك شرط آخر يتعلق بسيرة طالبها، فقبل أن تمنح الإدارة الفرنسية هذه الرخصة، فإنها تباشر عملية تحقيق إداري يتحري بدقة التوجهات السياسية و الدينية لطالبها، والذي يجب أن يكون مخلصا و وفيا لفرنسا. فعلى سبيل المثال فقد تقدم السيد عبد الله بلقاسم ولد محمد بطلب رخصة إلى الجهة الإدارية المختصة بذلك

[1] أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص 63.

[2] صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 227.

في مدينة وهران عام 1915م، و بعد تحقيق معمق في سيرته تمت الموافقة عليها لأن طالبها استوفى كل الشروط الشكلية و الموضوعية التي يفرضها مرسوم 1892، ضف إلى ذلك أنه كان رجلاطيبا و مخلصا لفرنسا و ينتمي إلى الطريقة الدرقاوية.[1]

و غني عن البيان أن شرط الإخلاص الذي يتحدث عنه الفرنسيون في هذه الحالة كان يخضع للسلطة التقديرية المطلقة للأعوان الإداريين الفرنسيين، فإذا لاحظوا فيه أنه يكافح من أجل إنقاذ الجزائر من براثين الجهل و الأمية و يدعو إلى نشر العلم و الفضيلة، و تعليم اللغة العربية، و مجابهة رغبة الكولون التجهيلية و مشاريع فرنسا الاستدمارية حرموه من هذه الرخصة و اتهموه بعدم الإخلاص لفرنسا. و أما إذا أدركوا أنه سيساهم في تغذية روح التفسخ الديني و الانحلال الخلقي و قيادة دعوات الجهل و الضلالة و البدع و الخرافات و أفكار الشرك بالله رخصوا له بفتح تلك المدرسة.

و الحقيقة أن سياسة التضييق الممارسة ضد التعليم العربي الحر كانت قد أدت إلى تراجعه بصورة تدريجية، ففي عام 1865 مثلا كان عدد التلاميذ الجزائريين الذين يلتحقون بمدارسه بقدر بنحو 13 ألف تلميذ، و لكن لم يأت عام 1880 حتى تناقص عددهم بشكل لافت للانتباه و وصل إلى ثلاثة آلاف تلميذ.[2]

و يبدو أن الأحكام التي جاء بها مرسوم 18 أكتوبر 1892م السالف الذكر، لم تحل مشكلة التعليم العربي الحر بالطريقة التي كان الفرنسيون يخططون لها، و ربما هذا ما يفسر الاصرار المستمر للإدارة الاستعمارية الفرنسية على نهجها المعادي لهذا النوع من التعليم. و يتجلى هذا الاصرار في القانون الذي أصدره المشرع الفرنسي بالجزائر في 24 ديسمبر 1904م، و الذي أكد فيه مرة أخرى على مسألة منع كل جزائري من فتح أو تولي إدارة

[1] أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص 63.

[2] عبد الله شريط، محمد الميلي: المرجع السابق، ص ص 218، 219.

مدرسة عربية أو كتاب لتعليم القرآن الكريم إلا بترخيص خاص من محافظ العمالة إذا كان طالب هذا الترخيص يقطن في مناطق الحكم المدني أي المناطق الشمالية للجزائر أو الحاكم العسكري إذا كان طالب هذا الترخيص يقطن في مناطق الحكم العسكري أي المناطق الجنوبية.[1]

و من جانب آخر تحدث هذا القانون عن البرامج الدراسية و المواد التي تدرس في هذه المدارس وفقا لما يلي:

- أنه ألزم القائمين عليها بتدريس القرآن الكريم و الاقتصار على تحفيظه فقط، أي أنه منع تفسيره، و شدد على عدم التعرض بأي شكل من أشكال التفسير لآيات القرآن الكريم التي تحض المسلم على الجهاد و تحارب الظلم و الاستبداد.
- أنه حرم هذه المدارس من تدريس مادة تاريخ الجزائر خاصة و التاريخ العربي و الإسلامي عامة، كما حرمها أيضا من تدريس جغرافية الجزائر و البلاد العربية، و الأدب العربي بجميع فنونه، و المواد الرياضية والعلمية.[2]

هذا و قد خصص المشرع الفرنسي شقا جزائيا تحدث فيه عن العقوبات التي تطال المخالفين لأحكامه إذ توعدهم بالحبس و الغرامة المالية أو بالعقوبتين معا، كما أنه منح الجهة الإدارية المانحة لرخصة التعليم حق سحبها لأجل مسمى أو بصورة نهائية إذا رأت أن المدرسين خالفوا قواعد الأخلاق و النظام العام! أو أنهم فتحوا أبواب مدارسهم أمام الأطفال الذين هم في سن التمدرس أثناء ساعات التعليم في المدارس الفرنسية، و ذلك في القرى و الأرياف القريبة من المدارس الفرنسية بمسافة تقل عن ثلاثة كيلو مترات، حتى لا يرفض الأطفال الالتحاق بالمدرسة الفرنسية و يلتحقون بمدرسة التعليم العربي الحر. و بما أن

[1] أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص 154.

[2] أحمد الخطيب: الثورة الجزائرية دراسة و تاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1958، ص ص 129، 130.

هذا القانون كان قد منح السلطة التقديرية الواسعة للإدارة الوصية، فقد تعسف أعوانها في تطبيق أحكامه و جعلوها سلاحا يشهرونه في وجه كل معلم أو مدير مدرسة أو كتاب قرآني يظهر غيرة وطنية صادقة على لغته أو دينه أو وطنه، فيسارعون إلى توقيفه و غلق مدرسته أو كتابه بصورة مؤقتة أو دائمة، و قد يحولوه على القضاء الذي قد يوجه له تهمة تعليم اللغة العربية دون ترخيص إداري، أو تهمة المساس بالنظام العام و مخالفة قوانين الجمهورية و لاسيما قانون 24 ديسمبر 1904، غيرها من التهم الأخرى، لذلك زج بعدد غير قليل من المعلمين و مديري المدارس العربية في السجون إلى جانب اللصوص و المنحرفين و محترفي الجريمة.[1]

و رغم ذلك بقيت بعض الزوايا في الأرياف تقدم هذا النوع من التعليم، و تمكنت من التأقلم مع الأوضاع الجديدة التي فرضتها التشريعات الفرنسية مثل زوايا منطقة الزواوة، و زاوية طولقة ببسكرة، و زاوية الهامل ببوسعادة، وزاوية قصر البخاري و غيرها، و اشتهر عدد كبير من علماء الزوايا الريفية أمثال الشيخ محمد بن بلقاسم و تلميذه محمد بن عبد الرحمان الديسي، و بلقاسم البوجليلي، و ابن أبي داود، و عدة غلام الله، و علي بن عثمان و غيرهم من العلماء الذين انتصبوا للتدريس وفقا للرؤية التي حددها المشرع الفرنسي.[2]

و هكذا استمر التعليم العربي الحر في نشاطه ضمن الإطار الفرنسي بواسطة وسائل تقليدية كاللوحة و مداد "السمخ"، و لم يكن أمام الجزائريين الرافضين لمخاطر سياسة الإدماج خيارات أخرى غير ذلك، حيث سدت في وجوههم كل سبل التعليم العربي الحديث، و صمت آذان الفرنسيين عن سماع مطالب الجزائريين المتعلقة بحقهم في التعليم ضمن الإطار العربي الإسلامي، و فتحت أمامهم أبواب المدارس الفرنسية وفقا

[1] رابح تركي: المرجع السابق، ص 155.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 396.

لإجراءات و تراتيب خاصة، و أطر ضيقة. و إذا كان السواد الأعظم من الجزائريين يفضل إرسال أبناءه إلى مدارس التعليم العربي الحر رغم بساطتها و قلة إمكاناتها، و يرفض إرسالهم إلى المدارس الفرنسية رغم إمكاناتها المتطورة، فلأن أبناءهم كانوا ملزمين بإنشاد السلام الوطني الفرنسي " لامارسيلياز" داخل هذه المدارس [1]، و كانوا يحفظون حفظا كاملا إسم كل قرية فرنسية، بينما كانوا يجهلون الحد الأدنى عن تاريخ و جغرافية بلادهم الجزائر، و تجدهم ملمين إلماما واسعا و دقيقا بتفاصيل تاريخ فرنسا لأنهم كانوا يتلقون دروسا تركز كثيرا على هذا الجانب[2]، بل أكثر من ذلك أنهم كانوا يلقنون في حصص مادة التاريخ منذ الأسبوع الدراسي الأول أن الجزائر كانت تسمى قديما (غاليا) (**La Gaule**)، وأن أجدادنا كانوا يسمون (الغاليين) (**Les Gaulois**) [3]

و لقد كان من الطبيعي جدا أن " يشيطن " الجزائريون المدارس الفرنسية، و يرفضون إرسال أبنائهم إليها و يكتفون بما كان يقدم لهم في مدارس التعليم العربي الحر، و قد لاحظ المسؤولون الفرنسيون ذلك، و أكد رئيس القطاع العسكري القسنطيني الجنرال (دي سال) (**De Salles**) هذه الحقيقة حينما قال " ... عموما إذا وضعنا في الميزان الجهود التي بذلناها في سبيل نشر العلم بين الأهالي، فلا بد أن نقول أنها لم تحقق أي نجاح يذكر، ذلك أن الأهالي يعتقدون أن العلم و الدين هما في الحقيقة وجهان لعملة واحدة، و أن كل خطوة نبذلها في سبيل تحسين مستوى أحدهما تجعلهم يتوجسون منها خيفة..."[4]

و قد انعكس هذا الوضع على حالة التعليم العربي في الجزائر خلال الحقبة الاستعمارية، و هي الحالة التي وصفها محمد فريد عندما زار الجزائر عام 1901م حينما قال:

---

[1] أحمد الخطيب جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، المرجع السابق، ص 63.

[2] يحي بوعزيز: المرجع السابق، ص 164.

[3] Charles-Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Tome Second, op.cit, p 956.

[4] Yvonne Turin. op.cit, p 118.

" إن حالة التعليم في الجزائر سيئة جدا، و لو استمر الحال على هذا المنوال لحلت اللغة الفرنسية محل العربية في جميع المعاملات، بل ربما تندرس العربية بالمرة مع مضي الزمن، فلا الحكومة تسعى في حفظها، و لا تدع الأهالي يؤلفون الجمعيات لفتح المدارس"، و يستمر قائلا: " هجرت ربوع العلم و خربت دور الكتب و صارت الديار مرتعا للجهل و الجهلاء، و كادت تندرس معالم اللغة العربية الفصحى، و تطرقت إلى اللغة العامية الكلمات الأجنبية، بل أصبحت اللغة الفرنساوية هي لغة التخاطب في العواصم مثل وهران و قسنطينة و عنابة و غيرها".[1]

و الواقع أن الشعب الجزائري لم يستسلم لإرادة المستعمر الفرنسي و مشاريعه الاستعمارية، بل قاومها و تصدى لها بقوة عن طريق نخبه الدينية و زعماء رأيه، و كان على رأسهم الشيخ عبد الحميد بن باديس الذي تألم كثيرا لرؤية الضحالة التي كانت عليها الحياة الثقافية في الجزائر، فقال: " هذا القطر قريب من الفناء ليست له مدارس تعلمه و ليس له رجال يدافعون عنه و يموتون من أجله، بل كان في اضطراب دائم مستمر... كان أبناؤنا يومئذ لا يذهبون إلا إلى المدارس الأجنبية التي لا تعطيهم غالبا من العلم إلا ذلك الفتات الذي يملأ أدمغتهم بالسفاسف حتى إذا خرجوا منها خرجوا جاهلين لدينهم و لغتهم و قوميتهم، و قد ينكرونها"[2]

و على هذا الأساس أسس عبد الحميد بن باديس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عام 1931م التي احتضنت نشر التعليم العربي الحر على نطاق واسع، و فتحت أبواب مدارسها على مصراعيها لتستقبل آلاف التلاميذ الذين فضل أولياؤهم إرسالهم إليها. و قد صور لنا الشيخ البشير الإبراهيمي أحد أركان هذه الجمعية حركة التعليم العربي الحر التي

[1] أنور الجندي: الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة، مصر، 1965، ص 133.

[2] أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص 64.

حملتهاجمعية العلماء المسلمين الجزائريين على عاتقها رغم التضييقات الإدارية التي كانت تمارسها الإدارة الاستعمارية الفرنسية ضدها فيقول: " ... إن مدارسنا (مدارس جمعية العلماء) عامرة بهذا الصنف من الأطفال و هو هذا الصنف المتشرد، الضائع، الذي لم يجد إلى التعليم الحكومي سبيلا، و أن عدده لكثير إنه ليقارب التسعين بالمائة من أبناء الأمة التي تدفع الضرائب. و تقوم بواجبات الجندية... و ما كنا في يوم من الأيام حربا للتعليم الفرنسي على تفاهته**!!** بل نحض عليه و نعده بابا من أبواب الثقافة، و سلاحا من أسلحة الحياة، و إنما نريد أن نجمع لأبنائنا بين التعليمين جمعا للمصلحتين و ما داموا محرومين من التعليم الفرنسي فمن حقنا و من واجبنا و من الإحسان إلى أبنائنا أن نشغلهم النهار كله بتعلم دينهم، و لغتهم، بدليل أننا لا نقبل في مدارسنا تلامذة الفرنسية إلا بعد الرابعة و النصف مساء لئلا يحرموا من أحد التعليمين على ما في هذه الساعات الزائدة من إرهاق للمعلمين و التلامذة عندنا. هذا ما نراه نحن أما الحكومة فإنها ترى أن بقاء أبنائنا في الأزقة معرضين للشر و الفساد خير من تعليمنا أياهم تعليما عربيا و إسلاميا فلما صممنا على أداء الواجب علينا لديننا و أمتنا، صممت على المعاكسة والتضييق...".[1]

و بالإضافة إلى حركة التعليم التي احتضنتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في مدينة قسنطينة، فقد تمكنت بعض المدارس من الحصول على ترخيص رسمي لمباشرة التعليم العربي الحر في بعض جهات الوطن مثل مدرسة الشبيبة الإسلامية التي تأسست عام 1927م بالجزائر العاصمة، و استمرت تؤدي رسالتها التربوية بكفاءة و اقتدار لمدة خمسة عشر عاما، و مدرسة السلام التي تأسست عام 1929م بالجزائر العاصمة كذلك، و قد تعاونت مع مدرسة الشبيبة الإسلامية في نشر التعليم العربي بين أبناء العاصمة، و المدرسة العربية القرآنية عام 1929م كذلك في العاصمة التي كان لها منهاج جديد للتعليم العصري، و مدرسة جمعية

[1] محمد البشير الإبراهيمي: عيون البصائر، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1964، ص ص 239، 240.

الإصلاح الخيرية في مدينة غرداية عام 1928م، كما تأسست مدارس عربية أخرى في مدن جزائرية أخرى كتلمسان و بجاية، و وادي ميزاب و غيرها.[1]

و يطول بنا الحديث إذا ذهبنا نتتبع و نرصد بدقة كل الجوانب المتعلقة بالتعليم العربي الحر أو التعليم الوطني و التضييق الذي مارسه المستعمر الفرنسي عليه و على اللغة العربية و الهوية الوطنية سيرا مع سياسة الفرنسة و الإدماج و التنصير التي كان يهدف إلى فرضها على الشعب الجزائري منذ البدايات الأولى للاحتلال، و ردود الفعل الوطنية العنيفة المتمثلة في صمود رجال التعليم العربي الحر إنطلاقا من الزوايا و في إطار الحركة الوطنية و لاسيما الحركة الإصلاحية بقيادة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. و نكتفي بالقول أنه رغم محاصرة الإدارة الاستعمارية له منذ البداية، و رغم الإمكانات البسيطة التي كان يعتمد عليها إلا أن خريجيه كانوا قد أبلوا بلاء حسنا، و أبدوا كفاءة عالية في مجالات معينة. و قد اعترف الفرنسيون بتفوق أبناء الزوايا في امتحان الدخول لسلك القضاء عام 1869م، و أظهرت النتائج أن نسبة نجاحهم كانت أعلى مقارنة مع خريجي المدارس الحكومية الثلاث، و قد سيطروا على هذه الوظيفة إلى غاية عام 1880م.[2] يضاف إلى هذا الجهود التي بذلتها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين في نشر هذا التعليم و العمل على إصلاحه من حيث النظم و البرامج و طرق التدريس، جعلت منه تعليما عصريا تحطمت عنده مشاريع المسخ الاستعماري، و كان ينافس أو على الأقل يضاهي التعليم الحكومي الفرنسي الذي سنعرض له تباعا.

ب- التعليم الحكومي الرسمي

[1] رابح تركي: التعليم القومي و الشخصية الوطنية 1931-1956، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، المرجع السابق، ص ص 239-243.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 395.

يقسم التعليم الحكومي الرسمي أثناء الحقبة الاستعمارية الفرنسية إلى ثلاثة أنواع: النوع الأول خاص بالفرنسيين، و النوع الثاني خاص بالجزائريين، بينما النوع الثالث كان مزدوجا، و في ما يلي نتحدث عن كل نوع بشيء من التفصيل.

أولا : التعليم الخاص بالفرنسيين

واكب هذا النوع من التعليم بداية الاحتلال الفرنسي حيث طبقه الفرنسيون بطريقة منظمة منذ عام 1833م، و قد شمل كل مراحل التعليم من الابتدائي إلى مرحلة التعليم العالي. و كان يتوسع كلما ازداد تقاطر الكولون على الجزائر، غير أن هذا الاتساع كان يمس بالدرجة الأولى مرحلة التعليم الابتدائي لارتباطه بأبناء المستوطنين[1]، و هو يخضع من الناحية المبدئية للنظام التعليمي المطبق في فرنسا.

و قد استحدث الفرنسيون في كل عمالة جزائرية مراقبا عاما للتعليم الابتدائي، و مراقبين ابتدائيين، و مجلسا عماليا للمراقبة، و التعليم في هذه المرحلة إجباري في كل المدارس على الجنسيين من سن السادسة إلى سن الثالثة عشر من أبناء الأوروبيين، أما أبناء الأهالي فلا يكون إجباريا عليهم إلا إذا صدر أمر من الجهات العسكرية العليا التي يمثلها الوالي العام [2]، و معلوم أن أبناء الجزائريين المعنيين في هذا السياق هم الذين إنحاز أولياؤهم إلى الفرنسيين، مثل أبناء رجال الدين الرسميين الذين قبلوا الوظائف الدينية الرسمية، و أبناء القياد و الأغوات و الوسطاء الأهليين الذين تولوا الوظائف الرسمية، و أبناء الجنود المرتزقة الذين انخرطوا في صفوف الجيش الفرنسي[3]، و كان التعليم الابتدائي يشمل المدارس الآتية:

- مدرستان لتخريج المدرسين: الأولى في بوزريعة بالجزائر العاصمة و الثانية في قسنطينة.

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 387.

[2] أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 274.

[3] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، 387.

- ثلاث مدارس لتخريج المدرسات: الأولى في مليانة، والثانية في قسنطينة، و الثالثة في وهران.
- 10 مدارس ابتدائية عليا خاصة بالذكور تقع في : الجزائر و بوفاريك و الحراش و قسنطينة و سيدي بلعباس و مستغانم و مليانة و باتنة و سطيف و المدية.
- 8 مدارس ابتدائية عليا للإناث تقع في: الجزائر و البليدة و مليانة و قسنطينة و معسكر و مستغانم و سطيف و سيدي بلعباس.
- 1530 مدرسة ابتدائية تضم 2791 قسما.
- 106 مدرسة أمومة عامة.[1]

و بالموازاة مع ذلك أنشأ الفرنسيون كذلك مدارس تقدم تعليما يخص المرحلة المتوسطة، و قد كانت مدارسه في الأصل مخصصة لخدمات الدين الإسلامي أو للجيش. و كانت هذه المؤسسات تسمى (كوليجات)، و تطبق هي الأخرى البرامج الرسمية المطبقة في فرنسا التي كانت تركز على تعليم اللغات القديمة (اليونانية و اللاتينية)، كما جرى الاهتمام كذلك بالتعليم الثانوي، حيث فتح الفرنسيون عدة مدارس خاصة بهذه المرحلة، إلا أن طلابها كانوا يلتحقون بفرنسا للحصول على شهادة البكالوريا. و في عام 1862م دشن الفرنسيون أول ثانوية فرنسية بالجزائر، و سموها ثانوية بيجو، (و هي الثانوية المعروفة حاليا بثانوية الأمير عبد القادر) و قد شيدت على أنقاض المقابر الإسلامية. و بعد عام 1871م تكونت بالجزائر عدة ثانويات في الجهات الثلاث من الوطن خاصة في الجزائر العاصمة، و وهران و قسنطينة و غيرها.

أما بالنسبة للتعليم العالي، فإن أول مدرسة للطب و الصيدلة أسست عام 1857م، و كانت مهمتها تنصرف إلى دراسة الأعشاب و الأمراض المختلفة في الجزائر، إضافة إلى

[1] أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 274.

تكوين مساعدين في التمريض، و قد سمح لعدد قليل من الجزائريين بدخولها، غير أن هذا القطاع التعليمي تأسس بصورة رسمية عام 1879م [1]، حيث تأسست جامعة الجزائر لتضم أربعة كليات أولها كلية الحقوق، و هي تدرس الحقوق العامة و الحقوق الفرنسية والنظم و القوانين الجزائرية و الإسلامية، و تمنح شهادة الليسانس و الدكتوراه في الحقوق، و ثانيها هي كلية الطب و الصيدلة، و ثالثها كلية الآداب التي تركز على تعليم المشرقيات و تدرس الآداب الفرنسية، و الآداب و اللغات القديمة، و الآداب و اللغات الحديثة، و الفلسفة الإسلامية، و تاريخ الفلسفة الإسلامية، و اللغة العربية الفصحى، و الآداب العربية الحديثة، و الآثار الإفريقية، و الجغرافيا الإفريقية، و تاريخ إفريقيا الشمالية و تاريخ التمدن الإسلامي و نحو ذلك، و تمنح هذه الكلية لخريجيها شهادة العلوم التاريخية و شهادة الدراسة العليا للغة العربية و آدابها، و شهادة للغة العربية، و أخرى للغة القبائلية، و شهادة الكفاءة لتدريس اللغة العربية بالثانويات و الكوليجات، و تمنح أيضا شهادة الدكتوراه في الآداب. أما بالنسبة للكلية الرابعة فهي كلية العلوم.[2]

و قد نشطت هذه الكليات الأربعة التي شكلت نواة جامعة الجزائر في خدمة مقاصد الإدارة الاستعمارية الفرنسية، فكلية الآداب كانت مرتعا للاستشراق الفرنسي، و كلية الحقوق شكلت مركزا لتسخير الشريعة الإسلامية لأحكام القانون الفرنسي، و كانت كلية العلوم أيضا تترجم مقاصد المستعمر، و لم تكن هذه الكليات تتمتع بالاستقلالية من حيث البرامج و الشهادات، و إنما كانت تابعة لفرنسا، ذلك أن الطالب الفرنسي في الجزائر عليه

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 387، 388.

[2] أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 276

أن يجري إمتحان تخرجه النهائي في فرنسا ضمانا للمحافظة على المستوى و أيضا ضمانا للتبعية.[1]

و إذا كان الفرنسيون قد سمحوا لبعض الفئات من الجزائريين بالانخراط في سلك التعليم العالي، فيجب أن يفهم أن هذه الفئة "المحظوظة" كان عددها ضئيلا جدا، و لا يتناسب ألبتة مع نسبة سكان الجزائر، و قد لاحظ المؤرخ الفرنسي " أجيرون" "**Ch.R.Ageron**" أن حصة الأسد من عدد طلبة التعليم العالي تعود إلى الفرنسيين و الأوروبيين، أما عدد الطلبة الجزائريين فقد كان هزيلا و لا يكاد يذكر. ففي عام 1914م كان عدد الطلبة الجزائريين المتخرجين من الجامعة كما يلي:[2]

الكلية	عدد الطلبة	طبيعة الشهادة
الحقوق	12 01	شهادة ليسانس في الحقوق. شهادة الكفاءة في الحقوق.
الطب	01 01 03	شهادة الدكتوراه في الطب شهادة الدكتوراه في الصيدلة.

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 388، 389.

[2] Charles-Robert Ageron : les Algériens Musulmans et la France, 1871-1919, Tome Second, op.cit, p 962.

		شهادة قابلة.
الآداب	01 33 03 193 03	شهادة الدراسات العليا في اللغة العربية شهادة اللغة العربية شهادة اللغة البربرية شهادة تدريس اللغة العربية في التعليم الإعدادي شهادة تدريس اللغة البربرية في التعليم الإعدادي
العلوم	02 22	شهادة ليسانس في العلوم شهادة العلوم الطبيعية

و قد قدر عدد طلبة الجامعة الجزائرية عشية الاحتفال الفرنسي بالذكرى المائوية لاحتلال الجزائر عام 1930 بـ 1890 طالب موزعين وفقا للجدول الآتي: [1]

الكلية	الطلبة الجزائريون	الطلبة الفرنسيون و الأوروبيون
الحقوق	17	831
الطب	07	324
الصيدلة	06	211
العلوم	14	198
الآداب	33	249

و بهذا يتأكد لنا مرة أخرى أن عدد الطلبة الجزائريين كان منخفضا جدا حيث قدر خلال هذه السنة التي احتفل فيها الفرنسيون بمائوية احتلال الجزائر بـ 77 طالبا، و بالمقابل كان عدد الطلبة الفرنسيين و الأوروبيين مرتفعا جدا حيث وصل إلى 813.1 طالبا.

و هناك صنف آخر من التعليم جربه الفرنسيون في الجزائر و ألحقوه بالتعليم الخاص بالفرنسيين، و كانت حلقاته موجهة لهم دون سواهم أي أنه كان محرما على الجزائريين مهما

[1] صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص ص 213، 214.

كانت درجة ولائهم و قربهم للفرنسيين، و يسمى هذا الصنف بحلقات اللغة العربية أو كراسي اللغة العربية. و قد طبقوه تلبية لحاجة الإدارة الفرنسية في فهم لغة الجزائريين و طبائعهم و ذلك تمهيدا لعملية إدماجهم في البوتقة الفرنسية. و قد طبق الفرنسيون أول تجربة له في بداية الاحتلال على يد أحد الأساتذة المشارقة و هو " جوني فرعون". و في عام 1836م عهد هذا الصنف إلى أحد الفرنسيين بالجزائر العاصمة و هو " برينييه"، ثم انشئت له حلقات أخرى في قسنطينة و وهران. و اشتهر في هذا النوع من التعليم أساتذة لامعون أمثال (شيربونو)، و (هوداس)، و (ماشويل)، و كانت حلقاته تستهدف تدريس اللغة العربية العامية للفرنسيين الذين سيشغلون مناصب إدارية تتطلب إتصالهم المباشر و اليومي مع الأهالي. و كانت معرفة اللغة العربية الدارجة شرطا أوليا لتوظيف الفرنسيين في هذه المناصب الحساسة. و كان هذا التعليم يكون كذلك المترجمين العسكريين و القضائيين، و قد طلب كذلك من المدرسين فيه أن ينشروا اللغة الفرنسية بين أعيان الموظفين الجزائريين. و قد تواصل العمل به إلى حوالي عام 1877م حينما أدمجه الإصلاح التعليمي في المدارس العربية – الفرنسية الرسمية الثلاث و حول أساتذته إلى هذه المدارس و أشرفوا عليها إداريا و بيداغوجيا.[1]

ثانيا: التعليم الخاص بالجزائريين

كان التعليم الخاص بالجزائريين على ثلاثة أنواع: تعليم عربي، و تعليم فرنسي، و تعليم مزدوج.

– التعليم العربي

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 389.

ترك هذا النوع من التعليم في بداية الأمر إلى الزوايا التي كانت تقدم دروسا في التعليم الابتدائي و الثانوي بشكل مستمر و مجاني. ففي المرحلة الابتدائية كان التلميذ يتعلم فيها القراءة و الكتابة و بعض السور القرآنية الصغيرة، أما المرحلة الثانوية فكان يتعلم فيها العقيدة، والتشريع أو الفقه، و النحو، والحساب.[1]

و يبدو أن الفرنسيين عملوا على تنظيمه و تقنينه في نهاية القرن 19م، حيث صدر قرار حكومي مؤرخ في 30 جوان 1898م يحدد الشروط و الشكليات التي يفرضها القانون على المدرسين في هذا السلك التعليمي، حيث حددهم خلال هذه السنة بـ 33 مدرسا موزعين على 33 بلدة من بلاد الجزائر، كما اشترط أن يكونوا متخرجين من القسم العالي بالمدرسة الثعالبية ليعلموا الناس النحو والفقه أو التوحيد. و لم يكن لهم برنامج رسمي واضح يطبقونه أو منهاج دراسي ينفذونه، و إنما كانوا يعلمون المتعلمين حسب اجتهاداتهم الخاصة أو حسب رغبات الناس.[2]

– التعليم الفرنسي

مر هذا النوع من التعليم بعدة مراحل و عرف عدة أصناف، و تأثر بالتطورات التي عرفتها الحركة الاستعمارية الفرنسية بالجزائر، ففي المرحلة الأولى التي امتدت إلى غاية عام 1850م تميز بالإهمال المطلق من طرف الفرنسيين الذين كانوا منشغلين بالمقاومة الشعبية و مقاطعة أهل الحضر للمدرسة الفرنسية، و خلال هذه المرحلة فتح الفرنسيون ثلاث مدارس له في الجزائر العاصمة و عنابة و وهران، و سموها مدارس مشتركة (عربية/فرنسية) غير أنها لم تستقطب العدد الكافي من التلاميذ، و قد لوحظ عليها قلة المواظبة و الاهتمام.[3]

[1] صالح بن نبيلي فركوس: المرجع السابق، ص 221.

[2] أحمد توفيق المدني: المرجع السابق، ص 277.

[3] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 390.

و لما رأت السلطات الاستعمارية الفرنسية أنها بحاجة إلى تكوين طبقة من العلماء يتولون المناصب الشرعية أصدرت قرارا مؤرخا في 30 سبتمبر 1850 ينص على تأسيس مدارس عربية إسلامية في المدية و تلمسان و قسنطينة، و قد نقلت من بعد مدرسة المدية إلى البليدة ثم إلى الجزائر العاصمة.

و يعين خريجو هذه المدارس كمساعدين و كتاب، و قضاة و أئمة في المناطق النائية. و تسمى هذه الوظائف بوظائف الدرجة الثانية. أما الطلبة الذين يرغبون في الوصول إلى رتبة مفتي أو قاض فعليهم الالتحاق بمدرسة الثعالبية التي يمضون فيها بنجاح عامين دراسيين، و يكلل مسارهم الدراسي بشهادة العلوم العليا. غير أن الانتقال إلى مدرسة الثعالبية كان يتوقف على اختيار إدارتها لعشرة طلاب فقط يتم انتقاؤهم من بين خريجي المدارس الثلاث، وفقا لمعايير دقيقة.

و تخضع هذه المدارس لمراقبة السلطات العسكرية الفرنسية لأن المادتين الثامنة و التاسعة من مرسوم إنشائها اعتبرتها " مدارس ذات طبيعة سياسية"، أما بالنسبة للبرامج الدراسية التي تطبق في هذه المدارس فتشمل القواعد و الأدب و القانون و التاريخ و الجغرافيا و النظام الإداري و الحساب و مبادئ الهندسة و العلوم الطبيعية و الكونية و حفظ الصحة، و هي مواد كلها تقدم باللغة الفرنسية. أما مبادئ اللغة العربية و التوحيد و الفقه الإسلامي فتقدم باللغة العربية. و قد وجهت انتقادات شديدة إلى هذه المدارس من طرف بعض المحافظين و المفكرين المسلمين الذين انتقدوا برامجها و مدرسيها، كما أن بعض الفئات الوطنية كانت تنظر إلى خريجيها على أنهم خونة و عملاء لأنهم سيعملون على ترجمة إرادة المحتل الفرنسي على مستوى المناصب التي يشغلونها.[1]

[1] أحمد الخطيب: المرجع السابق، ص ص 66، 67.

و في عام 1877م تم إدماج هذه المدارس في النظام التعليمي الفرنسي، و سميت بالمدارس الفرانكو-إسلامية من حيث البرامج و الإدارة و التوجيه. و في عام 1892م تعرضت إلى تغيير آخر أدى إلى فرنستها أكثر. أما آخر تغيير مس هذا النوع من المدارس فكان عام 1895م حيث تم استحداث قسم عال في مدرسة العاصمة ليستقبل الطلبة الراغبين في الارتقاء إلى مناصب عليا.[1]

- التعليم المزدوج

تجسد هذا النوع من التعليم في فتح أول معهد إمبراطوري عربي – فرنسي بالجزائر العاصمة عام 1858م بناء على أحكام مرسوم إنشاءه الصادر في 14 مارس 1857م، و كان الهدف من وراء فتح هذا النوع من التعليم هو تكوين نخبة جزائرية مزدوجة الثقافة (عربية فرنسية)، لذلك فإن الفئات التي كان يستهدفها التعليم المزدوج هي فئة الأعيان الجزائريين و علية القوم، ذلك أن الفرنسيين اقتنعوا أنه " لا مندوحة لهم من توجيه الخطاب أولا و قبل كل شيء إلى الأعيان و وجهاء القوم". و قد برر وزير الحربية الفرنسي الماريشال (فايون) (**Vaillant**) أحد مهندسي هذا النمط التعليمي إنشاء أول معهد عربي-فرنسي كما يلي: "... إذا أرادت فرنسا الوصول إلى قلوب الأوساط الشعبية الأهلية، فما عليها إلا البدء بفتح أبواب التعليم أمام الطبقات الراقية من المجتمع الأهلي، و سوف يسارع إلينا أبناء رؤساء الأهالي و العائلات الكبرى إذا طلبنا منهم الانخراط في منظومتنا التعليمية لانتهال المعارف و العلوم التي تناسب أوضاعهم الاجتماعية...".[2]

و على هذا الأساس فقد وضع برنامج دقيق لهذا المعهد يتوخي الغرض الاستراتيجي الذي أنشئ لأجله، حيث كان يجمع بين التلاميذ الجزائريين والفرنسيين في آن واحد. و

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 393.

[2] Charles-Robert Ageron : Les Algériens Musulmans et la France 1871-1919, Tome Premier, op,cit, p 321.

عندما نجحت أول تجاربه بالعاصمة أنشأ الفرنسيون معهدا على غراره بقسنطينة عام 1867م، و وقع التفكير في إنشاء معهد آخر في وهران أو تلمسان بالغرب الجزائري، غير أن هذه الفكرة أجهضت في مهدها بسبب تغيير النظام السياسي الفرنسي عام 1870م، فوقع التراجع عن فكرة إنشاء المعهدين السابقين.[1]

و الواقع أن هذا التراجع كان قد مس السياسة التعليمية الفرنسية برمتها في الجزائر التي أثارت اعتراض المستوطنين الذين سيطروا على زمام أمور الجزائر بعد عام 1870م. و قد حاول الوزير (جول فيري) (**Jules Ferry**) إدراكا منه لأهمية نشر التعليم الفرنسي بين الأهالي كوسيلة للقضاء على ثقافتهم الوطنية أن يعمل على تطوير المنظومة التعليمية الخاصة بالجزائريين، إلا أن محاولته أجهضت و لم تر النور حيث جوبهت بغضب الكولون. و قد امتعض هذا الوزير من هذا الموقف و قال: " ... إن المعمرين يعتبرون الأهالي من جنس بشري منحط لا يصلح إلا للأعمال الشاقة دون أجرة، و هذا الاعتقاد منهم هو الذي جعلهم يثورون على فتح مدارس للأهالي، إنهم يعتبرون الأهالي غير جديرين إلا بالإرهاق و القهر...".[2]

لقد اعترض الكولون على السياسة التعليمية الفرنسية، و انتابتهم موجة من الغضب الشديد حينما لاحظوا أن المدارس تقام "لهذه الفئة من الأوغاد"، كما عارضت البلديات التي كانت تحت سيطرتهم كذلك تقديم المساعدات للمدارس باعتبارها "تجربة خطيرة و باهضة الثمن". و قد وقف الكولون هذا الموقف المعادي و المعارض لتعليم الجزائريين لأنهم

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص 394.

[2] عبد الله شريط، محمد الميلي: المرجع السابق، ص 219.

كانوا يعتقدون أن التعليم سينير دربهم " و إذا عم بينهم فإن كلمتهم ستوحد و تكون الجزائر للعرب دون سواهم".[1]

و هكذا نرى أن السياسة التعليمية الفرنسية في الجزائر كانت متأثرة إلى حد بعيد بالسياسة الاستعمارية عموما، بل كانت تنفيذا لها، لأنها كانت إحدى أدواتها الرئيسية. و إذا كان تعليم أبناء الجزائر قد استمر خلال الحقبة الكولونيالية بكاملها فقد كان في حدود مالية و عنصرية و جغرافية ضيقة.

2- كبار المعلمين

من غير الممكن رصد قائمة كاملة بكبار المعلمين الذين انتصبوا للتدريس خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية، لذلك سنكتفي بذكر نماذج منهم على سبيل المثال لا الحصر.

أ- حميدة العمالي 1813-1873م

انتصب حميدة العمالي للتدريس في الجامع الكبير بالجزائر العاصمة، و كان متبحرا في عدة علوم كالحديث و الفقه و الأدب و البلاغة، تخرج على يده العديد من الطلبة ا لنوابغ، و قد وصف بشيخ الجماعة قبل ظهور الشيخ عبد القادر المجاوي. تولى منصب الإفتاء عام 1856م، و ظل فيه إلى غاية عام 1873م تاريخ وفاته. مارس العمالي وظائف أخرى كعضوية المجلس القضائي، كما تعاون مع زميله محمد بن مصطفى و أحمد البدوي و أحمد بن الحاج موسى في ترجمة نصوص تنظيم القضاء الإسلامي إلى اللغة العربية عام 1859.[2]

ب- الشيخ عبد الحليم بن سماية 1866م -1933م

[1] Charles-Robert Ageron : Histoire de L'Algérie Contemporaine, (Que sais-je ?), P.U.F, Paris, France, 1977, pp 66, 67.

[2] عبد الرحمان الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، الجزء الرابع، المرجع السابق، ص ص 279-282.

كان الشيخ عبد الحميد بن سماية من العلماء الذين اجتمع بهم الإمام محمد عبده عند زيارته للجزائر عام 1903.[1] كان مدرسا بمدرسة الثعالبية و الجامع الجديد، و كانت طريقته في التدريس و فصاحة لسانه تثير إعجاب المفتشين الفرنسيين الذين يزورونه أثناء الدرس، و نتيجة لذلك فقد نال عدة أوسمة علمية تقديرا و اعترافا بفضله و كفاءته في آداء مهمته. و قد وصفه تقرير لأحد المفتشين بأنه " مثقف متمكن و متنفذ في مدينة الجزائر، و أن له درسين في المسجد عام و خاص، و هو يستعمل دفتر المناداة، و عدد الحضور يتراوح بين العشرة و الثلاثين".[2]

ت- بوعلي الغوثي

تخرج بوعلي الغوثي من القسم العالي بمدرسة الجزائر، مارس القضاء قبل أن يعين للتدريس في مدينة بلعباس عام 1902م عن عمر يناهز 27 سنة. و قد وصفه تقرير تفتيشي فرنسي بأنه " ذكي و قادر على القيام بالعمل الموكل إليه، و هو يكتب و يتكلم اللغة الفرنسية جيدا، و لكن صحته عليلة ". و انطلاقا من هذه الاعتبارات، فقد اقترحته هيئة التفتيش لمنصب مدرس بالجامع الكبير بتلمسان الذي نقل إليه عام 1907م. و نتيجة لذلك فقد بقي منصب جامع سيدي بلعباس شاغرا، فخلفه عبد القادر منصور لمدة وجيزة، لأن هذا الأخير استدعي لممارسة وظيفة أستاذ في بلاد السينغال، و عين مدرس آخر في هذا الجامع و هو الحبيب مالكي الذي كان هو الآخر من خريجي القسم العالي بمدرسة الجزائر.[3]

ث- الشيخ عبد القادر المجاوي 1848م-1913م

---

[1] الشيخ رشيد رضا: تاريخ الإمام محمد عبده، الجزء الأول، مطبعة المنار، القاهرة، مصر د.ت، ص 128.

[2] عبد الرحمان الجيلالي: "جوانب من كفاح الشيخ عبد الحليم بن سماية السياسي و الثقافي"، الأصالة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية بالجزائر العدد 13، عام 1973، ص ص 199-212.

[3] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي، الجزء الثالث، ص ص 119، 120.

يعتبر الشيخ عبد القادر المجاوي من العلماء الكبار الذين يمكن تسميتهم إسم دوائر المعرفة بسبب غزارة علمه و تنوع معارفه و نبوغه في مختلف الفنون والعلوم. و قد وهب الشيخ عبد القادر المجاوي نفسه للعلم و التعليم، حيث تخرج على يده عدد كبير من العلماء الجزائريين منهم العالم حمدان لونيسي أستاذ الشيخ عبد الحميد بن باديس و غيره. و قد ترك الشيخ المجاوي إلى جانب نشاطه في مجال التربية و التعليم عدة مؤلفات تقدر بـ 13 كتابا تتناول عدة موضوعات حول اللغة العربية و علومها، و كان من رجال الإصلاح الديني حيث حارب البدع و الخرافات، توفي بقسنطينة عام 1913م، و قد ترجم له الشيخ الحفناوي في كتابه تعريف الخلف برجال السلف.[1]

ج- عبد المجيد بوجمعة

استخلف عبد المجيد بوجمعة منصب الشيخ حمدان الونيسي في التدريس بالجامع الكبير بقسنطينة، و كان عدد تلاميذه عام 1913م يقدر بنحو 63 تلميذا، و هو عدد مرتفع، منهم عشرون تلميذا فقط من مدينة قسنطينة. أما الباقون فكانوا من خارجها و خاصة من باتنة و المسيلة و سطيف و بجاية و غيرها. و قد أشاد مفتش التعليم السيد (دورنون) (**Dournon**) بنشاطه و طريقته في التدريس. و استمر يباشر مهامه خلال فترة الحرب العالمية الأولى (1914-1918). و كان يجمع بين التدريس في المدرسة الشرعية و التدريس في الجامع الكبير الأمر الذي جلب له سخط مسؤوليه و لاسيما مفتشه – الذي كان هو الآخر يجمع بين منصبين لأنه كان أيضا مدير مدرسة قسنطينة الشرعية- فانتقده بسبب ذلك، كما إتهمه بتقديم تلاميذه على غيرهم أثناء امتحان الدخول إلى المدرسة الشرعية لأنه كان عضوا في لجنة الامتحان و الانتقاء. و قد تتلمذ على يديه علماء كبار

[1] رابح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر، المرجع السابق، ص ص 106، 107.

منهم العالم و المفكر و فيلسوف الحضارة مالك بنو نبي الذي نوه به كثيرا في مذكراته، و بالمقابل انتقد كثيرا المفتش (دورنون) الذي اعتبره من أساطين الاستعمار الفرنسي.[1]

ح- محمد العربي بلايلي

تخرج محمد العربي بلايلي من مدرسة قسنطينة الشرعية الفرنسية، ثم القسم العالي من مدرسة الجزائر، انتصب للتدريس بجامع عنابة، خلفا للسيد ابن العابد عام 1901م. و لما كان أصيل مدينة عنابة، فقد كان يرفض الانتقال منها حسب تقرير مفتشه السيد (شارل سان كالبر)، إلا أنه ربط موافقته على نقلته إلا بتحقيق شرط واحد و هو شغور إحدى مناصب المدارس الشرعية الثلاث، و كان يتقاضى راتبا هزيلا لا يكفيه لسد حاجاته اليومية و حاجة عائلته التي كانت كثيرة العدد، حيث يقدر بـ 75 فرنكا فرنسيا، لذلك كان يقدم دروسا إضافية للشباب المترشح لدخول إحدى المدارس الشرعية الثلاث. و سجل مفتشه أن هناك مواظبة في حضوره و حضور تلاميذه، و التزاما بالمواد المقررة في البرنامج. و كان بلايلي يقدم دروسا عامة و أخرى خاصة بتلاميذ المدارس الابتدائية أيام الخميس و الأحد، كما كان يلقي دروسا في التوحيد خلال شهر رمضان المعظم. و إذا كان مفتشه السابق قد أشاد به في مختلف تقاريره، فإن المفتش الجديد و هو (دورنون) كان له رأي مخالف فيه تماما حيث وصفه بأنه "... غير مؤهل للوظيفة التي يشغلها، و أنه قضى في التعليم خمسة عشرة سنة، و أنه شخص لا يوثق في كلامه...".[2]

و ليقع الاقتصار على هذا القدر من كبار المعلمين الذين ذاع صيتهم و علا كعبهم خلال الحقبة الكولونيالية الفرنسية. و تطول القائمة لو أردنا ذكر معلمين كبار آخرين، و قد اقتصرنا على جملة منهم للدلالة على كثرة هذه الطائفة من رجالات الثقافة في الجزائر حينئذ،

[1] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 141، 142.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص ص 145، 146.

و هي على كل حال ظاهرة إيجابية، خاصة و أن هؤلاء كانوا قد تمكنوا من فرض وجودهم بمختلف الطرق في الحقل الثقافي الجزائري كرجالات علم و ثقافة، و ربما كانوا يخفون مودتهم و يكظمون غضبهم أحيانا تجاه السياسة الكولونيالية الجائرة التي كانت تطالهم كما كانت تطال سائر إخوانهم الجزائريين. و أما الذين كان لهم علم غزير و ثقافة واسعة، و لم يتمكنوا من التأقلم مع معطيات السياسة الفرنسية، أو لم ينجح الفرنسيون في تدجينهم فقد هاجروا أو هجروا أو تم نفيهم.

3- هجرة العلماء

لا يمكن الحديث عن هجرة علماء الجزائر إلى الخارج خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية دون الإشارة إلى الجدل الديني و اللغط السياسي التي أثارته هذه المسألة في بداية الاحتلال، و هو في واقع الأمر استمرار للجدل الفقهي القديم الذي عرفناه فيما مضى في قضية الأندلسيين الذين هاجروا من بلادهم إلى المغرب. فالحديث إذا عن هذا الموضوع لم يكن وليد الظاهرة الاستعمارية الفرنسية، و إنما كان سابقا لها بكثير، بل أننا إذا رمنا التعمق أكثر فيه لقلنا أن هذا الجدل ارتبط بمخيال المسلمين بحدث هام في تاريخهم و هو هجرة نبي الخلق سيدنا محمد – صلى الله عليه و سلم- من مكة إلى المدينة عام 622م. و لو لا الإطالة التي قد تخرجنا عن نطاق دراستنا لخضنا فيه، لذلك نكتفي بالقول أنه في بداية الاحتلال الفرنسي للجزائر طرح السؤال الفقهي الآتي: هل يجوز للمسلم الإقامة و العيش تحت سلطة دولة مسيحية أم أنه ملزم بمبارحة بلده و الهجرة إلى مكان آخر؟

لقد أجاب بعض علماء الجزائر و نخبها و قادتها و زعماء رأيها في ذلك الحين على هذا السؤال، و منهم الأمير عبد القادر الذي قال بوجوب الهجرة، و كان دليله على ذلك

ورود عدة أحاديث نبوية شريفة تحث على ذلك منها قوله صلى الله عليه و سلم: " أنا بريء من مسلم يقيم بين أظهر الكافرين".[1]

و الواقع أن الفرنسيين كانوا حينئذ قد اجتهدوا من أجل التصدي لهذه الفتوى التي توجب على المسلمين الجزائريين الهجرة من بلادهم التي تحولت إلى "دار كفر"أو دار حرب" وفقا للتمثلات الدينية السائدة حينئذ و التوجه إلى بلد إسلامي للمحافظة على دينهم و العيش في أمن و آمان.

و قد تولى هذه المهمة (ليون روش) (**Léon Roches**) الذي كلفه الجنرال (بيجو) (**Bugeand**) سيء السمعة بمهمة تنصرف إلى استصدار فتوى من علماء مسلمين تلزم الجزائريين بالبقاء في بلدهم.

و تبعا لذلك زار تونس و استطاع بمساعدة أحد التيجانيين أن ينالها من علماء القيروان، ثم أجرى اتصالات مع علماء الأزهر بمصر فصدّقوا عليها، كما صدّق عليها شريف مكة والطائف، ثم أرسلها إلى السلطات الفرنسية عام 1841م، فعملت على الترويج لها في أوساط الجزائريين.[2]

و الحقيقة أن الهدف الاستراتيجي للفرنسين من وراء استصدار هذه الفتوى لم يكن يتعلق بجواز أو عدم جواز بقاء الجزائريين تحت سلطة "الكافر"، و إنما كان بغرض دفع

---

[1] جمال قنان: نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر، د.م.ج، الجزائر، 1993، ص 142.

[2] حول هذا الموضوع ينظر:

- يوسف مناصرية: مهمة ليون روش في الجزائر و المغرب 1832-1847، م.و.ك، الجزائر، 1990، ص ص 23-34.
- يوسف مناصرية: " ليون روش داخل جيش الأمير عبد القادر"، سيرتا، مجلة تاريخية اجتماعية يصدرها دوريا معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، العدد 9/8، 1983، ص ص 5-18.
- Léon Roches : Dix Ans à Travers l'Islam (1834-1844), Préface de M.Carraby, Paris, France, 1904, pp 152-183.

الجزائريين للاستسلام و الركون إلى الدعة و الاستكانة و التخلي عن المقاومة المسلحة التي كانت مشتعلة حينئذ. و السؤال الذي يطرح في هذا السياق. ما هي الحقيقة التاريخية لهجرة الجزائريين من بلدهم؟ و هل للدوافع الدينية دور في ذلك؟ أم أن هذه الظاهرة كانت لها مسوغات أخرى؟

حقا أن الجزائريين هاجروا في بداية الاحتلال و استمرت هجرتهم خلال الحقبة الاستعمارية برمتها، و تفرقوا شذرا مذرا في بلاد الإسلام من مغربها إلى مشرقها طلبا للعيش في كنف الإسلام و الحرية الدينية، و قد هاجروا إلى المغرب بحكم روابط الدين و الأخوة و معطيات التاريخ و الجغرافيا، كما هاجروا إلى المشرق لأن سحره و جاذبيته كانت دائما عالقة في أذهانهم، فالشرق عندهم كان مرادفا لمكة و المدينة، و بغداد، و دمشق، و القاهرة، و الأزهر، و اسطانبول، و القدس، و هي مدن و عواصم لها مكانتها الروحية و الحضارية في قلوب الجزائريين و قلوب المسلمين إجمالا، و لكن أليس القول بأن هجرتهم أساسها ديني صرف فيه ابتعاد عن الحقيقة؟.

يجب ألا ننسى أنهم هاجروا للفكاك من مضايقات الإدارة الاستعمارية الفرنسية و سياستها الخرقاء، و هي التي أعطت أوامرها باستيلاء الكولون على أراضيهم، و تعرضهم للعقوبات الصارمة بعد فشل الانتفاضات و المقاومات. و لا نحتاج لإقامة الدليل على أن المحتل الفرنسي كان يهدف إلى تجريد السكان من كل ممتلكاتهم و التضييق عليهم. و الحقيقة أن أخبار هجرة عموم الجزائريين لا تهمنا كثيرا في هذا السياق، لأن الذي يهمنا هو هجرة العلماء. و لا شك أن أسباب هجرتهم لا يمكن فصلها عن الأسباب العامة لتلك الهجرة. و بما أنهم كانوا يشكلون الصفوة المستنيرة، فقد تكون الأسباب المتعلقة بالجانب العلمي والديني مقدمة عن سائر الأسباب الأخرى. و لما كان عدد علماء الجزائر الذين هاجروا أو هجروا أو

نفوا كبيرا، فإنه من العسير ضبط قائمة بأسمائهم لاقتفاء آثارهم في بلد الاستقبال، لذلك سنكتفي بالإشارة إلى البعض منهم:

أ- محمد بن محمود ابن العنابي (1725م-1850)[1]

هو محمد بن محمود بن محمد بن حسين الجزائري، و شهرته ابن العنابي، و شهرة جده الأعلى كذلك حسين بن محمد العنابي نسبة إلى مدينة عنابة، و كان على مذهب الحنفية. عاش ابن العنابي لفترة طويلة تتوزع على نهاية القرن 18م، و بداية القرن 19م. و غني عن البيان أنها تعد من أحرج الفترات التاريخية ليس فقط بالنسبة للجزائر، و إنما أيضا بالنسبة للدولة العثمانية و العالم الإسلامي برمته. فقد عاصر الثورة الفرنسية عام 1789م صاحبة مبادئ (الأخوة و المساواة و العدالة)، و تحرشات المسيحيين ضد الجزائر و حروبهم عليها، و كان شاهدا أيضا على الحروب و الفتن الداخلية التي كانت تعصف بالجزائر كثورة الطريقة الدرقاوية و ابن الأحرش و غيرهما، و الصراع على السلطة بين الطائفة التركية بالجزائر.

تولى ابن العنابي عدة وظائف رسمية، أهمها وظيفة القضاء الحنفي في عهد الداي عمر باشا (1814م-1816م). و قد دعى ابن العنابي إلى التجديد الإسلامي و إلى الصحوة منذ عام 1826م في كتاب ألفه في مصر تحت عنوان (السعي المحمود في نظام الجنود) و رجع بعد ذلك إلى وطنه الجزائر الذي احتله الفرنسيون عام 1830م، فوضعه قائدهم الجنرال (كلوزيل) (**Clauzel**) في السجن بسبب موقفه المعارض لتسليم المساجد للجيش الفرنسي، ثم وجه له تهمة التآمر ضد الوجود الفرنسي، و على إثر ذلك تم نفاه إلى مدينة الإسكندرية المصرية، حيث تولى بها منصب الإفتاء، و بقي فيه إلى أن قضى نحبه هناك عام 1850م.

[1] للمزيد من الإطلاع حول حياة و آثار محمد بن محمود ابن العنابي ينظر:

- محمد بن محمود ابن العنابي: المصدر السابق.
- أبو القاسم سعد الله: محمد بن العنابي رائد التجديد الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990.

ب- المفتي مصطفى ابن الكبابطي (1189 هـ -1277 هـ)

ولد ابن الكبابطي بالجزائر العاصمة، و كان عالما و مدرسا للفقه، و الحديث و النحو، و المنطق و بعض المتون. تولى منصبا على المذهب المالكي خلال السنوات الثلاثة الأخيرة للعهد العثماني (1827م-1830م). و كان أحد الشخصيات التي قابلت اللجنة الإفريقية التي أوفدتها فرنسا للتحقيق في الجزائر عام 1833م، فقال رأيه بصراحة فيما يخص الأحوال الشخصية و القضاء.

و كان رأيه معارضا لسياسة الفرنسيين بالجزائر في المجال الديني، فاتهموه هو الآخر بالتمرد و العصيان والعداء، فأصدروا حكمهم بنفيه رفقة عائلته إلى جزيرة (القدسية مارغاريت) (**S.T Margarite** عام 1843م، غير أنهم غيروا له وجهة النفي إلى الإسكندرية بمصر التي وصلها يوم 24 يونيو من عام 1843م، فنزل ضيفا عند المفتي الحنفي ابن العنابي الذي أكرم نزله، و بقي بها كثيرا يتولى الفتوى على مذهب الإمام مالك إلى أن توفي عام 1277 هـ.[1]

ت- حمدان الونيسي 1856-1920م

عرف حمدان الونيسي بالصلاح و التقوى و تخرج عليه العديد من علماء الجزائر أمثال عبد الحميد بن باديس، والبشير الإبراهيمي و الطيب العقبي و غيرهم.[2]

و كان له تأثير بعيد المدى على شخصياتهم، و خاصة عبد الحميد بن باديس الذي تعلم منه اللغة العربية و الثقافة الإسلامية بمدينة قسنطينة قبل أن يسافر إلى جامع الزيتونة بتونس عام 1908م. و ظل عبد الحميد بن باديس يذكره بإجلال كبير طوال حياته، حيث

[1] عبد الكريم بوصنصاف و آخرون: معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين، منشورات مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية، جامعة منتوري قسنطينة، 2002، ص ص 121، 123.

[2] محمد صالح الجابري: النشاط العلمي و الفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983، ص 59.

كان يوصيه أن (يقرأ العلم للعلم لا للوظيف و لا للرغيف)، و قد عاهده ألا يشتغل في الوظائف الحكومية الرسمية حتى لا تغل يديه بالقيود الاستعمارية الفرنسية الثقيلة.[1]

كان حمدان الونيسي من كبار الملاك و النواب و المفتيين والقضاة الرسميين بقسنطينة، و قد تبنى مواقف جريئة تتعلق بعدة قضايا وطنية مثل الأرض و القضاء الإسلامي و التعليم العربي و الضرائب و السياسة الأهلية. و كان من الموقعين على عريضة أعيان و وجهاء مدينة قسنطينة عام 1891م، التي تضمنت مظالم أهل قسنطينة ضد سلطات الاحتلال الفرنسي. و بفعل هذه المواقف فقد طرد من التدريس بالجامع الكبير عام 1910م، فاختار بعدها الهجرة إلى بلاد الحجاز و الإقامة بها إلى غاية وفاته هناك عام 1920.[2]

ث- علماء آخرون

خلال السنوات السبع عشرة الأولى من الاحتلال 1830م-1847م، فقدت الجزائر عددا هائلا من علمائها و أعيانها و نخبها السياسية والثقافية و قد استمرت هذه الموجة طيلة القرن 19م برمته، حتى كادت الجزائر تفرغ من قادتها و متعلميها.[3]

و قد غصت كتب التاريخ بالعلماء الجزائريين المهاجرين و الذين طالهم النفي و التهجير إلى البلاد الإسلامية مثل أبي حامد المشرفي الذي كانت له مكتبة غنية بالكتب و هاجر إلى المغرب الأقصى في بداية الاحتلال رفقه أسرته حاملا معه كتبه التي أنقذها من الضياع، و كذلك مصطفى الأغواطي خريج المدرسة الثعالبية الشرعية الذي هاجر إلى

[1] رابح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر، المرجع السابق، ص 164.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع السابق، ص ص 130، 131.

[3] أبو القاسم سعد الله: هجرة بعض الأعيان الجزائريين 1830-1847، أعمال الملتقي الوطني حول الهجرة الجزائرية إبان مرحلة الاحتلال 1830-1962، المنعقد بالجزائر يومي 30 و 31 أكتوبر 2006، منشورات وزارة المجاهدين الجزائر، 2007، ص 29.

موريطانيا في بداية القرن العشرين، و انتصب للتدريس هناك، و قد تتلمذ على يده العديد من الأعيان و منهم الرئيس الموريطاني السابق مختار ولد دادة.[1]

و من أبرز العلماء الذين هاجروا إلى البلاد التونسية كذلك قدور بن رويلة من الجزائر العاصمة، و محمد بن الحاج من سيدي عقبة، و مصطفى بن عزوز مؤسس زاوية نفطة الشهيرة، و هناك عائلات أخرى اشتهرت بالعلم نفتها فرنسا إلى البلاد التونسية، أو اختارت الهجرة إليها مثل عائلة المدني و السنوسي، و بوشوشة، و الثعالبي، والقلاتي، واللقاني، و البعثات الميزابية التي قادها الشيخ أبو اليقظان و إبراهيم بيوض و بعثات عبد الحميد بن باديس و جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و الأحزاب السياسية الجزائرية منذ الحرب العالمية الأولى و غير ذلك.[2]

و هكذا نرى أن علماء الجزائر كانوا قد هاجروا من الجزائر خلال الحقبة الكولويالية الفرنسية للفكاك من جور الفرنسيين، و إذا كانت للهجرة بصفة عامة أسباب سياسية و طائفية و اجتماعية و اقتصادية و دينية و علمية، فإن هجرة العلماء الجزائريين في تلك الفترة ارتبطت أساسا بالعامل السياسي و هو جور الفرنسيين و تعديهم عليهم بأنواع المظالم، و في الأخير نقول مرة أخرى أنه من الصعب رصد كل العلماء الجزائريين الذين ارتحلوا من أرض الجزائر خلال الفترة الاستعمارية و حطوا عصا ترحالهم في البلاد الإسلامية و بيان وظائفهم و نوع ثقافتهم، و مكانتهم العلمية و الأدبية هناك، خاصة و أن العالم الإسلامي كان في ذلك الحين وطنا واحدا، و أن الحدود التي رسمت بين وحداته لم تكن في الواقع إلا نتيجة للاستعمار الأوروبي الحديث.

4- التعليم و حركة التأليف

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزار الثقافي، الجزء الخامس، المرجع السابق، ص ص 387-389.

[2] أبو القاسم سعد الله: المرجع نفسه، ص 391.

كانت حركة التأليف مرادفة لحركة التعليم، و قد كانت نشيطة خلال الحقبة الاستعمارية الفرنسية و لاسيما خلال مرحلة اليقظة الفكرية التي عرفتها الجزائر خلال القرن العشرين. و قد أنجبت الجزائر عددا لا حصر له من العلماء والكتاب والمؤلفين الذين ساهموا بكتاباتهم في مختلف فنون العلم والمعرفة. و في ما يلي نقصر الكلام على أربعة مؤلفين نقدمهم على سبيل المثال و هم: أبو القاسم الحفناوي، و محمد بن أبي شنب، وأحمد توفيق المدني، و مبارك الميلي.

أ- الشيخ أبو القاسم الحفناوي 1852م-1942م

أخذ الشيخ أبو القاسم الحفناوي العلم في البداية في زاوية علي بن عثمان بنواحي طولقة، بعد أن تعلم عن والده مبادئ النحو والصرف والعروض و الفقه والتوحيد والمنطق والحساب و البلاغة، ثم انتقل إلى زاوية ابن أبي داود بالزواوة التي اعتبرها في مؤلفاته أم الزوايا العلمية، و بعدها ذهب إلى زاوية نفطة بالجنوب الغربي التونسي، و هي زاوية رحمانية عزوزية شهيرة بالعلم، ثم توجه إلى الجزائر العاصمة عام 1883م، و تعلم اللغة الفرنسية على يد رئيس المترجمين السيد (أرنو) (**Arnaud**)، كما أخذ أيضا أصول العلوم العصرية على يد مدرسين فرنسيين. انتسب إلى جريدة المبشر للتحرير و التصحيح، فكان يترجم الوثائق الرسمية الفرنسية، و يشيد بالآثار العلمية الفرنسية، فمدح الطبيب الفرنسي (لويس باستور)، و تحدث عن دوره في اكتشاف داء و دواء الكلب، غير أنه ربط بينه و بين دور الطب العربي في هذا المجال. يضاف إلى هذا أنه ساعد الفرنسيين (ديبون و كوبولاني) (**Dupont et Copolani**) في تأليف كتابهما الشهير حول الطرق الدينية الإسلامية.[1]

باشر الشيخ أبو القاسم الحفناوي مهام التدريس في الجامع الكبير بالجزائر العاصمة، و كذلك مهام الإفتاء على المذهب المالكي ابتداء من عام 1836م، إلا أن شهرته في

[1] أبو القاسم سعد الله: تاريخ الجزائر الثقافي ، الجزء الثالث، المرجع السابق، ص ص 88-90.

التأليف فاقت شهرته في التدريس و الإفتاء. و من أهم أعماله في التأليف مؤلفه الكبير (تعريف الخلف برجال السلف). و هو موسوعة ضمنها تراجم لعدد كبير من العلماء و الأدباء و المؤرخين والفقهاء الجزائريين الذين عاشوا خلال القرنين 13 و 14هـ. و كان هدفه من وراء هذا التأليف هو تذكير الجزائريين بمآثر أسلافهم في العلوم و الآداب لغرض الاقتداء و الاعتزاز بهم في زمن أطبق فيه ليل الاستعمار الطويل. و للشيخ أبي القاسم الحفناوي أعمال أخرى مبسوطة في كثير من الكتب و الدراسات.[1]

ب- الأستاذ الدكتور محمد بن أبي شنب 1869م-1929م

ولد محمد بن أبي شنب بالمدية عام 1869م، و سافر إلى الجزائر العاصمة عام 1886م، و انضم إلى مدرسة المعلمين (**L'École Normale**) التي تخرج منها أستاذا للغة الفرنسية. و في عام 1894م تحصل على شهادة في اللغة العربية، و في عام 1896 انضم إلى سلك طلبة البكالوريا فحصل على شهادتها الأولى، ثم تحول لدراسة اللغات الأجنبية: الإسبانية، و الألمانية، و اللاتينية، و الفارسية، و التركية، والعبرانية، و تحكم فيها بإتقان كبير. و في عام 1898م عين أستاذا بالمدرسة الكتانية بقسنطينة لتدريس النحو و الصرف و علوم الأدب و الفقه، ثم اشتغل مدرسا بالمدرسة الثانوية بالمدية، بعدها عين عميدا لكلية الآداب بالجزائر. و في عام 1920م انتخب عضوا بالمجلس العلمي العربي الذي كان مقره في دمشق بسوريا، و هي السنة التي تقدم فيها لنيل شهادة الدكتوراه بتأليف بحثين هما: شاعر العباسة أبو دلامة، و بحث لغوي حول الألفاظ التركية و الفارسية المستعملة في لغة أهالي الجزائر، و قد نالها بدرجة ممتاز. و بسبب غزارة علمه، فإن الإدارة الفرنسية أثقلت صدره بالأوسمة و النياشين أهمها نيشان العلوم والمعارف، و وسام جوقة الشرف عام 1920م.[2]

[1] رابح تركي: الشيخ عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر، المرجع السابق، ص 107.

[2] عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: محمد بن أبي شنب حياته و آثاره، م.و.ك، الجزائر، 1983، ص ص 13-19.

حقق محمد بن أبي شنب العديد من الكتب منها:

- كتاب " عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية" لأبي العباس الغبريني المتوفى عام 714هـ.
- كتاب " البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان" لابن مريم التلمساني.
- كتاب "طبقات علماء إفريقيا" لأبي العرب التميمي، مع كتاب " علماء إفريقيا" لمحمد الخشني، و كتاب "طبقات علماء تونس" لأبي العرب كذلك. و قد طبعت هذه الكتب الثلاث في باريس ضمن مجلد واحد عام 1915م.[1]

ت- أحمد توفيق المدني 1899م-1983م

ولد أحمد توفيق المدني عام 1899م، و درس في المدرسة الخلدونية و جامع الزيتونة بالبلاد التونسية. نفي إلى بلاد أجداده الجزائر عام 1925م بسبب مواقفه المناهضة للاستعمار الفرنسي، و كان عضوا بارزا في جمعية العلماء المسلمين الجزائريين. و بعد اندلاع الثورة التحريرية عام 1954م، التحق بالقاهرة و انضم إلى جبهة التحرير الوطني التي قادت الثورة، له عدة مؤلفات منها:

- كتاب الجزائر.
- حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا 1492م-1792م.
- محمد بن عثمان باشا داي الجزائر 1766م-1791م.
- المسلمون في جزيرة صقلية و جنوب إيطاليا.
- حياة كفاح، و هو عبارة عن مذكرات و يقع في ثلاثة أجزاء.
- تاريخ شمال إفريقيا أو قرطاجنة، في أربعة أجزاء.
- هذه هي الجزائر.

[1] رابح تركي: المرجع السابق، ص 109.

- تحقيق مذكرات الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر.[1]

ث- مبارك الميلي 1898م-1945م

ولد مبارك الميلي بقرية أولاد مبارك، و هي إحدى القرى التابعة إداريا لمدينة ميلة في عمالة قسنطينة عام 1898م، التحق بمعهد الشيخ محمد الميلي بميلة عن عمر يناهز خمسة عشر عاما لدراسة العلوم العربية والشرعية، ثم انتقل إلى قسنطينة لتلقي العلم على يد الشيخ عبد الحميد بن باديس. و بعد نحو سبعة أشهر سافر إلى تونس لإنهاء دراسته العليا فتحصل فيها على شهادة التحصيل و بعدها عاد إلى أرض الوطن عام 1922م ليساعد عبد الحميد بن باديس في مباشرة عمله التربوي. و قد نال إعجابه فأوفده إلى الأغواط عام 1923م للدعوة و التعليم، فأمضى فيها ثماني سنوات معلما و مبشرا بالإصلاح الديني والتربوي. و خلال مدة إقامته هناك تعرض مبارك الميلي لمحاولة اغتيال من قبل أهل الطرقية الذين حاولوا اغتيال الشيخ عبد الحميد بن باديس أيضا، كما تعرض لضغوطات الإدارة الاستعمارية الفرنسية الأمر الذي أرغمه على العودة إلى مسقط رأسه بميلة لمواصلة نشاطه الإصلاحي. و في عام 1931م انتخبه أعضاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين عضوا في مجلسها الإداري ، و استمر فيه إلى غاية وفاته عام 1945م عن عمر يناهز الثامنة و الأربعين.[2]

و اشتهر مبارك الميلي بكتابه " تاريخ الجزائر في القديم و الحديث"، و قد انتهى فيه إلى آخر العهد الإسلامي و تحديدا إلى آخر عهد الدولة الزيانية. و بعد أن أنجز جزئين من هذا الكتاب أدركته المنية، فأكمل نجله محمد الميلي الجزء الثالث و انتهى به إلى آخر الدولة العثمانية.

[1] صالح بن نبيلي فركوس:المرجع السابق، ص ص 350، 351.

[2] أحمد الخطيب: جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، المرجع السابق، ص ص 163، 164.

و إلى جانب ذلك ألف مبارك الميلي كتابا آخر هو "رسالة الشرك و مظاهره"، و قد اهتم فيه كما يدل عنوانه بمحاربة الخرافات و البدع التي كان المستعمر الفرنسي يشجع على انتشارها بين الناس في ذلك الزمان. و من صفاته في مجال الكتابة التاريخية كما يذكر صديقه عبد الرحمان الجيلالي أنه كان "... صبورا دؤوبا على البحث مغاليا في التحقيق و التدقيق مع مهارة منقطعة النظير في المقابلة بين النصوص، و كانت له نظرة صائبة في استجلاء الغوامض، و حكم صادق في أسباب الحوادث و نتائجها، و مهارة في الترتيب و التبويب مع حسن سبك يجعل التاريخ كالسلسلة المفرغة...".[1]

إن هؤلاء المؤلفين الذين ذكرناهم و الذين عسر علينا ذكرهم لضيق المجال هم الذين حافظوا على الثقافة العربية الإسلامية و كذلك اللغة العربية بجهودهم الفردية، و مشاركتهم في بعث اليقظة العلمية في الجزائر، و لو لا جهودهم و نشاطهم الصادق و الدؤوب لاندثرت تلك الثقافة منذ أواخر القرن 19م.

[1] عبد الرحمان الجيلالي: " من وحي ذكرى مرور أربعة عقود سنوية على وفاة العلامة النابغة الشيخ مبارك الميلي – رحمه الله –"، الثقافة مجلة تصدرها وزارة الثقافة والسياحة بالجزائر، العدد 80، عام 1984، ص ص 189-192.

خاتمـــة

خاتمة

من خلال دراستنا لتاريخ الجزائر الثقافي خلال العهدين الحديث و المعاصر، استطعنا أن نخلص إلى النتائج الآتية:

- تأثر الإنتاج الثقافي الجزائري خلال العهد العثماني بالتراث الثقافي الذي كان سائدا خلال القرن 15م الذي كان من أخصب العهود الثقافية في الجزائر بالنظر إلى أسماء المثقفين و العلماء و المؤلفات التي ألفت في ذلك الحين، كما أن المؤسسات الثقافية التي عرفتها الجزائر خلال العهد العثماني من مساجد و زوايا و مدارس و معاهد عليا و مكتبات كانت كلها قد تغذت من تراث هذا القرن.
- لا يمكن الحديث عن تاريخ الجزائر الثقافي خلال العهد العثماني دون الحديث عن التصوف و كل الظواهر الاجتماعية والدينية التي ارتبطت به من أولياء و كرامات و خرافة و انحرافات بعض المتصوفة الذين زاغوا عن النهج القويم، و ابتعدوا عن العلم و اقتربوا إلى الدجل و الخرافة و بنوا الزوايا و ادعوا الكرامات و خوارق العادات و أعطوا العهود و الأوراد، و لقنوا الأذكار و جمعوا الأموال و الهدايا من الناس بغير وجه حق و استغلوا العامة و الدهماء من الناس، و كانت معظم الطرق الصوفية مصدر قلق للولاة و الحكام الظالمين و لاسيما في نهاية العهد العثماني رغم أن هذه الطرق لم تكن لها فلسفة في التوحيد و لا عقيدة واضحة.
- لم يهتم الحكام العثمانيون بالحياة الثقافية و مؤسساتها بالجزائر في الغالب الأعم، حيث كان الاهتمام متروكا للمبادرات الفردية، و يقوم به أهل الإحسان و التقوى، و ذلك يعد من أهم أوجه السياسة العامة لنظام الحكم القائم آنذاك، و التي كانت تنصرف إلى المحافظة على الاستقرار السياسي و حماية الحدود، و جباية الضرائب، و الثابت أن ذلك يعد قصورا في سياسة الحكام العثمانيين، و كان الأحرى بهم أن يهتموا بهذا الجانب، و أن يؤاخوا بينهم و بين السكان، و أن يشاوروهم في الأمر و يحثوهم على طلب العلم و المعرفة و محاربة الظلالة

و الدجل لاسيما و أنهم جاءوا بإسم العقيدة الإسلامية والولاء للسلطان العثماني في إطار الرابطة العثمانية.

- احتل الفرنسيون الجزائر عام 1830م، و عملوا على غزوها ثقافيا من خلال محاولة فرنستها و تجهيلها و تنصيرها. و لم يكن الهدف من سياسة التنصير هو فتح الأبواب على مصراعيها أمام الجزائريين الذين أفلح المبشرون في تنصيرهم و قبولهم ضمن المنظومة المسيحية كما يدعون، بل بقوا ينظرون إليهم على أنهم أهالي جزائريين لم يرتقوا إلى مرتبة المواطن الأوروبي المسيحي، ذلك أن نظرة الفرنسيين والمستوطنين الأوروبيين إلى الجزائريين الذين أصبحوا على المذهب الكاثوليكي لم تتغير، و كانوا يسمونهم بـ " المسلمين الكاثوليك" و رفضوا السماح لهم بالانخراط في المجالس البلدية المشتركة.[1]
- رغم المحاولات الكبرى التي بذلتها فرنسا الاستعمارية عن طريق سياسييها، و عسكرييها، و مبشريها بقصد تنصير الجزائريين و فرنستهم، و برغم الإكثار من المعابد اليهودية و الكنائس المسيحية في الجزائر، فإن الجزائريين لم يتحولوا عن دينهم الإسلامي، و لم يفرطوا في لغتهم العربية، و هذا يدل دلالة واضحة على قصر نظر السياسة الفرنسية و ضيق أفقها عندما حاولت أن تفرض التنصير و الفرنسة على الجزائريين، و حاولت كذلك عبثا أن تغير الجزائر من أرض شرقية إلى أرض غربية**!**
- لم يكن هدف الفرنسيين من وراء نشر التعليم و تأسيس المدارس لأبناء الجزائر هو تثقيفهم و تعليمهم لأن ذلك يتيح لهم آفاقا أوسع و تبصرهم بحالة وطنهم البائسة، واستغلال المستعمر لهم، و هذا يتناقض مع مقاصدهم و أهدافهم، و لكنهم كانوا يقدمون لأبناء الجزائر تعليما ضحلا يجعلهم أسهل انقيادا و اندماجا في المنظومة الفرنسية. و مع ذلك فإن فئة الجزائريين التي كانت مستهدفة كانت قليلة، وكان الهدف من وراء هذه العملية هو تكوين وسطاء و

[1] صالح العقاد: المغرب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1966، ص ص 166-168.

أجراء و عمال بسطاء للعمل في مزارع الكولون و مشاريع الاستعمار، و في بعض الوظائف الإدارية الصغيرة و الثانوية.

- إن الذين تعلموا من أبناء الجزائر في المدارس الفرنسية و تحصلوا على شهادات علمية كانوا يحرمون من تولي الوظائف الإدارية المهمة في جهاز الدولة. و رغم أن قانون 14 جويلية 1865م الذي وضعه نابليون الثالث كان يسمح للجزائريين بتولي هذه الوظائف على الأقل من الناحية النظرية، فإنه من الناحية العملية لم يعمل به، بل أن الفرنسيين تخلوا عنه نهائيا في بداية القرن العشرين بمقتضى قرار 26 مارس 1919، و كذلك قرار 24 ديسمبر 1922 الذين حددا الوظائف التي لا يمكن للجزائريين شغلها مهما كانت شهاداتهم العلمية و قد حددت على سبيل الحصر بـ 35 وظيفة، و سماها المشرع الفرنسي " وظائف السلطة".[1] و هذا ما يؤكد مرة أخرى أن الهدف من وراء تعليم الجزائريين هو البحث عن وسطاء من أجل تسهيل عملية اختراق المجتمع الجزائري و تثبيت أركان السلطة الاستعمارية في الجزائر.
- لقد نجح المستعمر الفرنسي من خلال سياسته التعليمية في صنع طبقة من الجزائريين المتعلمين، ثم قام بتوظيفهم في المدارس والمساجد و بعض المناصب الإدارية الثانوية، و قد ألزمهم بالإخلاص لفرنسا التي عهدت لهم هذه المهمة، فنفذوها بالطريقة التي تخدم المصالح الفرنسية لدرجة أن بعضهم و خاصة المدرسين في المساجد سار سيرة نفرت الناس منهم و من التعليم بصفة عامة، فاتخذتهم الإدارة الاستعمارية الفرنسية حجة على الجزائريين و قالت أنها وضعت المدرسين في المساجد من أبناء الجزائر من أجل تنوير الجزائريين و تعليمهم، إلا أنهم أبوا أن يتلقوا عليهم العلوم. و علاوة على ذلك هناك من تخرج من هذه المدارس و راح يبرر سياسة فرنسا الاستعمارية الجائرة في بلاده الجزائر. و كان الأجدر به أن يمد يده لانتشال أبناء أمته من وهدة الجهل، و إنقاذ لغته من مهاوي الاضمحلال، إلا أنه كان من جملة

[1] رابح تركي: المرجع السابق، ص ص 41، 42.

المعاول الهدامة المخربة، و على هذا الأساس يمكن القول أن السياسة التعليمية التي طبقتها فرنسا في الجزائر كانت إحدى الأركان الأساسية للمشروع الاستعماري الفرنسي في الجزائر.

- إذا كانت حكومة باريس لم تستجب رسميا للرأي الداعي لعدم تعليم الجزائريين باعتبارهم " جنس بشري منحط لا يصلح إلا للأعمال الشاقة"، و هو رأي غلاة المعمرين، فإنها من الناحية العملية كانت قد ضيقت على هذا التعليم حتى و إن كان بالفرنسية، لأن الواقع التاريخي العملي يشير إلى أن فرنسا كانت بعد قرن من الاحتلال قد قضت على التعليم العربي بصورة نهائية، و حرمت الجزائريين مطلقا من التعليم العالي، و أن سياستها تسببت في غياب شبه كلي للتعليم الثانوي، ضف إلى ذلك أن التعليم الابتدائي انخفض إلى نسب متدنية جدا خلال القرن العشرين.

المصادر والمراجع

أولا: الأرشيفات

1- A.O.M :F80.500, Affaires Arabes, Province de Constantine 1852 : Cercle de Constantine pendant le mois de Juillet 1852.

2- I.S.H.C.T :A.O.M, Série 25H Tunisie, Carton 25H 18 (2), Dossier n° 2, Bobine A26 : Rapport du Général de division de la province de Constantine à son excellence le Maréchal de France, gouverneur général de l'Algérie à Alger, Le 15 Novembre 1869 au sujet des Marabouts de Nafta.

ثانيا: المصادر والمراجع باللغة العربية:

I- المصادر

1- ابن مريم (أبو عبد الله محمد بن أحمد): البستان في ذكر الأولياء و العلماء بتلمسان، تحقيق و تعليق محمد بن أبي شنب، المطبعة الثعالبية، الجزائر، 1908.

2- ابن العنابي (محمود بن محمود): السعي المحمود في نظام الجنود، تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم، م.و.ك، الجزائر، 1983.

3- الإبراهيمي (محمد البشير): عيون البصائر، دار المعارف، القاهرة، مصر، 1964.

4- بونار (رابح): مصباح الأرواح في أصول الفلاح، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1968.

5- التنسي (محمد بن عبد الله): نظم الدر و العقيان في بيان شرف بني زيان: تاريخ بني زيان ملوك تلمسان، تحقيق و تعليق محمود آغا بوعياد، موفم للنشر، الجزائر، 2011.

6- التنبكتي (أبي العباس أحمد بابا): اللآلي السندسية في الفضائل السنوسية، و هو مختصر كتاب المواهب القدسية في المناقب السنوسية، تحقيق محمود براهم، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الرغاية، الجزائر، 2011.

7- الجزائري (محمد بن عبد القادر): تحفة الزائر في تاريخ الجزائر و الأمير عبد القادر، الجزء الأول، شرح و تعليق ممدوح حقي، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، 2007.

8- الحفناوي (أبو القاسم): تعريف السلف برجال الخلف، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1983.

9- خوجة (حمدان بن عثمان): المرآة، تقديم و تعريب و تحقيق محمد العربي الزبيري، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982.

10- خوجة (حمدان بن عثمان): إتحاف المنصفين و الأدباء في الاحتراس من الوباء، تقديم و تحقيق محمد بن عبد الكريم، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1968.

11- دونوفو (إدوارد): الإخوان، دراسة إثنولوجية حول الجماعات الدينية عند مسلمي الجزائر، ترجمة و تحقيق كمال فيلالي، دار الهدى للنشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2003.

12- الراشدي (ابن سحنون) و بن علي (أحمد بن محمد): الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق و تقديم المهدي البوعبدلي، منشورات وزارة التعليم الأصلي، سلسلة التراث، قسنطينة، الجزائر، 1973.

13- الزهار (أحمد الشريف نقيب أشراف الجزائر): مذكرات، تحقيق أحمد توفيق المدني، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980.

14- زوزو (عبد الحميد): نصوص و وثائق في تاريخ الجزائر المعاصر 1830-1900، د.م.ج، الجزائر، 2007.

15- الغبريني (أحمد بن أحمد): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1971.

16- الفكون (عبد الكريم – شيخ الإسلام-): منشور الهداية في كشف حال من ادعى العلم و الولاية، تقديم و تحقيق و تعليق أبو القاسم سعد الله، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1987.

17- لوكيوس (أبوليوس): الحمار الذهبي، ترجمة أبو العيد دودو، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2001.

18- المغيلي (محمد بن عبد الكريم): أسئلة الأسقيا و أجوبة المغيلي، تقديم و تحقيق عبد الكريم زبادية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974.

19- الورتيلاني (الحسن بن محمد): نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ و الأخبار المشهورة برحلة الورتيلاني، تحقيق محمد بن أبي شنب، مطبعة فونتانا الشرقية، الجزائر، 1908.

20- الوزان (الحسن بن محمد الفاسي المعروف بليون الإفريقي): وصف إفريقيا، الجزء الثاني، ترجمة محمد يحي و محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، طبعة ثانية، بيروت، لبنان، 1983.

II- المراجع

1- أوصديق (الطاهر): ثورة 1871، ترجمة جباح مسعود، م.و.ك، الجزائر، 1989.

2- بدوي (محمد طه): دراسات سياسية و قومية، منشأة دار المعارف، الاسكندرية، مصر، د.ت.

3- برنيان (أندري)، نوشي (أندري)، لاكوست (إيف): الجزائر بين الماضي و الحاضر، ترجمة اسطمبولي رابح و منصف عاشور، د.م.ج، الجزائر، 1984.

4- البزاز (عبد الرحمان): هذه قوميتنا، دار القلم، الطبعة الثانية، مصر، 1964.

5- بل (ألفريد): الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم، ترجمة عبد الرحمان بدوي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1981.

6- بوعزيز (يحي): موضوعات وقضايا من تاريخ الجزائر و العرب، الجزء الأول، دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع، عين مليلة، الجزائر، 2004.

7- بوعزيز (يحي): ثورة 1871 و دور عائلتي المقراني و الحداد، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1978.

8- بوعزيز (يحي): السياسة الاستعمارية من خلال مطبوعات حزب الشعب الجزائري 1830-1954، د.م.ج، الجزائر، 1995.

9- بورويبة (رشيد) و آخرون: الجزائر في التاريخ، الجزء الثالث: العهد الإسلامي من الفتح إلى بداية العهد العثماني م.و.ك، الجزائر، 1984.

10- بوصفصاف (عبد الكريم) و آخرون: معجم أعلام الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين، منشورات مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية، جامعة منتوري، قسنطينة الجزائر، 2002.

11- تركي (رابح): التعليم القومي و الشخصية الوطنية 1931-1956، دراسة تربوية للشخصية الجزائرية، ش.و.ن.، الجزائر، 1975.

12- تركي (رابح): عبد الحميد بن باديس رائد الإصلاح و التربية في الجزائر، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981.

13- الثعالبي (عبد العزيز): تاريخ شمال إفريقيا من الفتح الإسلامي إلى غاية نهاية الدولة الأغلبية، جمع و تحقيق أحمد بن ميلاد و محمد إدريس، تقديم و مراجعة حمادي الساحلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1992.

14- الجابري (محمد الصالح): النشاط العلمي و الفكري للمهاجرين الجزائريين بتونس 1900-1962، الدار العربية للكتاب، تونس، 1983.

15- الجندي (أنور): الفكر و الثقافة المعاصرة في شمال إفريقيا، الدار القومية للطباعة و النشر، القاهرة، مصر، 1965.

16- الجيلالي (عبد الرحمان بن محمد): تاريخ الجزائر العام، الجزء الثاني، المطبعة العربية، الجزائر، 1375 هـ/1955.

17- الجيلالي (عبد الرحمان بن محمد): محمد بن أبي شنب حياته و آثاره، م.و.ك، الجزائر، 1983.

18- حسيني (عبد الوهاب حسن): خلاصة تاريخ تونس، تقديم و تحقيق حمادي الساحلي، دار الجنوب للنشر، تونس، 2010.

19- الخطيب (أحمد): جمعية العلماء المسلمين الجزائريين و أثرها الإصلاحي في الجزائر، م.و.ك، الجزائر، 1985.

20- الخطيب (أحمد): الثورة الجزائرية، دراسة و تاريخ، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1985.

21- دبوز (محمد علي): نهضة الجزائر الحديثة و ثورتها المباركة، الجزء الأول، المطبعة العربية، الجزائر، 1971.

22- دويب (عبد الرحمان): الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، عالم المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2013.

23- الزركشي (خير الدين): معجم الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، 1980.

24- زيادة (نقولا): صفحات مغربية، بيروت، لبنان، 1956.

25- سبنسر (وليم): الجزائر في عهد رياس البحر، تعريب و تعليق عبد القادر زبادية، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1980.

26- سعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16م-20م)، الجزء الأول، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1971.

27- سعد الله (أبو القاسم): تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16م-20)، الجزء الثالث، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000.

28- سعد الله (أبو القاسم): الحركة الوطنية الجزائرية 1860-1900، الجزء الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2000.

29- سعد الله (أبو القاسم): أبحاث و آراء في تاريخ الجزائر، المجلد الأول، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005.

30- سعد الله (أبو القاسم): محمد العنابي رائد التجديد الإسلامي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990.

31- سعد الله (أبو القاسم): تجارب في الأدب و الرحلة، م.و.ك، الجزائر، 1983.

32- سعد الله (أبو القاسم): أفكار جامعة، م.و.ك، الجزائر، 1988.

33- سعد الله (أبو القاسم): خلاصة تاريخ الجزائر: المقاومة و التحرير 1830-1962، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2007.

34- سعدي (عثمان): عروبة الجزائر عبر التاريخ، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1982.

35- سعيدوني (ناصر الدين): دراسات و أبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، م.و.ك، الجزائر، 1984.

36- سعيدوني (ناصر الدين): النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني 1792-1830، م.و.ك، الجزائر. 1985.

37- شارن (شافية) و آخرون: الاحتلال الاستيطاني و سياسة الرومنة، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة و ثورة 1954/11/01، الجزائر، 2007.

38- شريط (عبد الله)، الميلي (محمد): الجزائر في مرآة التاريخ، طبع و نشر مكتبة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1965.

39- شنيتي (محمد البشير): الاحتلال الروماني لبلاد المغرب (سياسة الرومنة 146 ق.م-40م)، م.و.ك، الجزائر، 1985.

40- شنيتي (محمد البشير): التغيرات الاقتصادية و السياسية في بلاد المغرب أثناء الاحتلال الروماني و دورها في أحداث القرن الرابع الميلادي، م.و.ك، الجزائر، 1984.

41- الشيخ (رشيد رضا): تاريخ الإمام محمد عبده، الجزء الأول، مطبعة المنار، القاهرة، مصر، د.ت.

42- الصيد (سليمان): نفح الأزهار في قسنطينة من الأخبار، المطبعة الجزائرية للمجلات و الجرائد، الجزائر، د.ت.

43- الطمار (محمد): الروابط الثقافية بين الجزائر و الخارج، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1983.

44- عباد (صالح): الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 2005.

45- العربي (إسماعيل): الصحراء الكبرى و شواطئها، م.و.ك، الجزائر، 1983.

46- العقاد (صالح): المغرب العربي، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مصر، 1966.

47- غانم (محمد الصغير): معالم التواجد الفينيقي البوني في الجزائر، دار الهدى، عين مليلة، الجزائر، 2003.

48- فركوس (صالح بن نبيلي): الوجيز في تاريخ الثقافة الجزائرية من العهد الفينيقي إلى غاية الاستقلال (814 ق.م-1962م)، دار المعارف للطباعة، الجزائر، 2015.

49- قشي (فاطمة الزهراء): قسنطينة في عهد صالح باي البايات، منشورات ميديا بلوس، قسنطينة، الجزائر، 2005.

50- قليل (عمار): ملحمة الجزائر الجديدة، الجزء الأول، دار البعث، الطبعة الأولى، قسنطينة، الجزائر، 1991.

51- قنان (جمال): نصوص سياسية جزائرية في القرن التاسع عشر، د.م.ج، الجزائر، 1993.

52- لوبون (غوستاف): روح السياسة، ترجمة محمد عادل زعتر، المطبعة العصرية، جمهورية مصر العربية، د.ت.

53- الماجري (عبد الكريم): هجرة الجزائريين و الطرابلسية و المغاربة الجواونة إلى تونس (1831-1937). دراسة تاريخية لإشكالية الاستعمار و الهجرة و تشكل الجاليات المغاربية بتونس و خصوصياتها الاجتماعية والقانونية، الشركة التونسية للنشر و تنمية فنون الرسم، تونس، 2010.

54- محمود (فرج فرج): إقليم توات خلال القرنين الثامن عشر و التاسع عشر الميلاديين، دراسة لأوضاع الاقليم السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية مع تحقيق كتاب القول المبسوط في أخبار تمنطيط لمحمد بن بابا حيدة، د.م.ج، الجزائر، 1988.

55- المدني (أحمد توفيق): كتاب الجزائر، نشر دار الكتاب، الجزائر، 1963.

56- المدني (أحمد توفيق): حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا 1492-1792، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1981.

57- مريوش (أحمد) و آخرون: الحياة الثقافية في الجزائر خلال العهد العثماني، منشورات المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة 01 نوفمبر 1954، الجزائر، 2007.

58- مراد (سعيد): الفرق و الجماعات الدينية في الوطن العربي قديما و حديثا، عين للدراسات والبحوث الإنسانية و الاجتماعية، مصر، 1997.

59- الميلي (مبارك بن محمد): تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، الجزء الأول، تقديم و تصحيح محمد الميلي، م.و.ك، الجزائر، 1989.

60- الناظوري (رشيد): المغرب الكبير، الجزء الأول، طبعة القاهرة، مصر، 1965.

61- نايت بلقاسم (مولود قاسم): شخصية الجزائر الدولية و هيبتها العالمية قبل 1830م، الجزء الثاني، دار البعث للطباعة و النشر، الطبعة الأولى، قسنطينة، الجزائر، 1985.

62- وعلي (محمد الطاهر): التعليم التبشيري في الجزائر 1830-1904، دراسة تاريخية تحليلية ، منشورات دحلب، الجزائر، 1997.

63- مناصرية (يوسف): مهمة ليون روش في الجزائر والمغرب 1832-1847، م.و.ك، الجزائر، 1990.

ثالثا: المصادر و المراجع باللغة الفرنسية

I- المصادر

1- Abbas (Ferhat) : La nuit Coloniale, Guerre et Révolution d'Algérie, Éditions A.N.E.P, Alger, Algérie, 2006.

2- Depont et Cappolani : Les Confréries Religieuses Musulmanes, Alger, 1897.

3- Rinn (Louis) : Marabouts et Khouan, Librairie Éditeur, Alger, 1884.

4- Roches (Léon) : Dix ans à travers l'islam (1834-1844), Préface de M.Carraby, Paris, France, 1904.

5- Yver (Georges) : Correspondance du Maréchal Valée, Tome 2 (Juin-Décembre 1838), Éditions la Rose, Paris, France,1950.

II- المراجع

1- Benachenhou (Abdelhamid) : Connaissance du Maghreb, Notions d'Ethnographie, d'Histoire et de Sociologie, Presses des Éditions Populaires de l'Armée Nationale, Alger, Algérie, 1971.

2- Bertrand (Louis) : Saint-Augustin, Éditions Fayard, Paris, France, 1913.

3- Braudel (Fernand) : la Méditerranée et le Monde Méditerranéen à l'époque de Philippe II, Tome 2, Colin, Paris, France, 1966.

4- Carlier (Omar) et Autres : Lettrés, Intellectuels et Militants en Algérie (1880-1950), O.P.U, Alger, Algérie, 1988.
5- Courcelles (Pierre) : Recherches sur les Confessions de Saint-Augustin, E. de Bocard Éditeur, Paris, France, 1950.
6- Decret (Fernand) : Carthage ou l'Empire de la Mer, Tours, France, 1977.
7- Delastre (Louis André) : Sainte-Monique Mère de Saint-Augustin, Imprimerie du Sud Est, Lyon, France, 1960.
8- Gautier. E.F : Le Passé de L'Afrique du Nord, les Siècles Obscurs, Éditions Payot, Paris, France, S.D.
9- Gaïd Mouloud : Mokrani, Édition Andalouses, Alger, Algérie, 1993.
10- Gouvernement Général de L'Algérie, Service des Liaisons Nord-Africaines : les Confréries Religieuses En Algérie,1951.
11- Goldzeiguer (Annie Rey) : le Royaume arabe, la Politique Algérienne de Napoléon III, 1861-1870, ENAG Éditions, Alger, Algérie, 2010.
12- Ibrahimi (Ahmed Taleb) : Réflexions sur la Révolution Culturelle en Algérie, de la Décolonisation à la Révolution Culturelle, SNED, Alger, Algérie, 1973.
13- Juan (Penella) : le Transfert des Moriscos Espagnols en Afrique du Nord, in Études sur les Moriscos Andalous en Tunisie, Publiées par M. de Epalza et R. Petit, Tunis, Tunisie, 1973.
14- Julien (Charles-André) : Histoire de L'Algérie Contemporaine : La Conquête et les débuts de la Colonisation (1827-1871), Casbah Éditions, Alger, Algérie, 2005.
15- Julien (Charles-André) : Histoire de L'Afrique Nord : Tunisie, Algérie, Maroc, de la Conquête Arabe à 1830, S.N.E.D, Alger, Algérie, 1978.

16- Kaddache (Mahfoud) : L'Algérie dans l'Antiquité, S.N.E.D, Alger, Algérie, 1982.
17- Kaddache (Mahfoud) : L'Algérie Médiévale, S.N.E.D, Alger, Algérie, 1982.
18- Marron (Henri) : Saint-Augustin et L'Augustinisme, Éditions le Seuil, Paris, France, 1955.
19- Mahsas (Ahmed) : Le Mouvement Révolutionnaire en Algérie de la Première Guerre Mondiale à 1954, Librairie- Éditions le Harmattan, Paris, France, 1979.
20- Mazouni (Abdellah) : Culture et Enseignement en Algérie et au Maghreb, Éditions Maspero, Paris, France, 1968.
21- Monleau (Jean) : les États Barbaresques, P.U.F, 1ère Édition, Paris, France, 1964.
22- Pellegrino (Michel) : Les Confessions de Saint-Augustin, Éditions Alasatia, Paris, France, 1960.
23- Picard (Charles) : La Vie Quotidienne à Carthage au Temps d'Hanibal, Hachette, Paris, France, 1958.
24- Raymond (André) : Grandes Villes Arabes à l'Époque Ottomane, la Bibliothèque Arabe Sindbad, Paris, France, 1985.
25- Sari (Djilali) : L'Insurrection de 1881, Centre National d'Études Historiques, S.N.E.D, Alger, Algérie, 1981.
26- Turin (Yvonne) : Affrontements Culturels dans l'Algérie Coloniale : Écoles, Médecines, Religion (1830-1880), E.N.A.L, 2ème Édition, Alger, Algérie, 1983.

رابعا: الدوريات

I- باللغة العربية

1- بعلي (حفناوي): " مدخل في إشكالية الأدب اللاتيني الأفريكاني، دراسة مقارنة في التأثر و التأثير"، التواصل، مجلة تصدرها جامعة باجي مختار، عنابة، الجزائر، العدد 4، عام 1999.

2- التميمي (عبد الجليل): " رسالة من مسلمي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 1541م"، المجلة التاريخية المغاربية بتونس، العدد 3، عام 1975.

3- الجنحاني (الحبيب): " حركة التبشير والسياسة الاستعمارية الفرنسية في المغرب العربي في القرن التاسع عشر"، الأصالة مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية بالجزائر، العدد 16، عام 1979.

4- الجيلالي (عبد الرحمان): " جوانب من كفاح الشيخ عبد الحليم بن سماية السياسي و الثقافي" الأصالة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية بالجزائر، العدد 13، عام 1973.

5- الجيلالي (عبد الرحمان): " من وحي ذكرى مرور أربعة عقود سنوية على وفاة العلامة النابغة الشيخ مبارك الميلي"، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة و السياحة بالجزائر، العدد 80، عام 1984.

6- حلوش (عبد القادر): " حركة التنصير في الجزائر عهد الاحتلال"، الرؤية، مجلة يصدرها المركز الوطني للدراسات و البحث في الحركة الوطنية و ثورة 1954/11/01 بالجزائر، العدد 1، عام 1996.

7- سعد الله (أبو القاسم): " أربعة رسائل بين باشاوات الجزائر و علماء عنابة"، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الإعلام و الثقافة بالجزائر، العدد 51، عام 1979.

8- سعد الله (أبو القاسم): " هجرة بعض الأعيان الجزائريين 1830-1847"، أعمال الملتقى الوطني حول الهجرة الجزائرية إبان مرحلة الاحتلال 1830-1962 المنعقد بالجزائر يومي 30 و 31 أكتوبر 2006، منشورات وزارة المجاهدين بالجزائر، 2007.

9- سعد الله (أبو القاسم): " منهج الفرنسيين في كتابة تاريخ الجزائر"، الأصالة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية بالجزائر، العدد 14، عام 1973.

10- الشيخ (أبو عمران): " أوغسطين العنابي و مقاومة الحركة الدوناتية" الأصالة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية بالجزائر، العدد 35/34، عام 1976.

11- صاري (جيلالي): " مخطوطات قسنطينة و مصيرها بعد سقوط المدينة سنة 1837م"، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة و السياحة بالجزائر، العدد 80، عام 1984.

12- صاري (جيلالي): "إبادة قبيلة العوفية بوادي الحراش"، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة، بالجزائر، العدد 77، عام 1983.

13- الطالبي (محمد): " الهجرة الأندلسية إلى إفريقية أيام الحفصيين"، الأصالة، مجلة ثقافية تصدرها وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية بالجزائر، العدد 26، عام 1975.

14- عقون (محمد العربي): " من أعلام المغرب القديم: القديس أوغسطين (تاغست 354م-هيبون 430م)"، الحوار الفكري، مجلة فكرية محكمة تصدر دوريا عن مخبر الدراسات التاريخية و الفلسفية، جامعة منتوري قسنطينة، الجزائر، العدد 3، عام 2002.

15- العيد (مسعود): "المرابطون والطرق الصوفية بالجزائر خلال العهد العثماني"، سيرتا، مجلة تاريخية اجتماعية، يصدرها معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، الجزائر العدد 10، عام 1988.

16- فركوس (صالح): " الباي محمد الكبير و بعث الحركة الثقافية"، الثقافة، مجلة تصدرها وزارة الثقافة بالجزائر، العدد 71، عام 1981.

17- يوسف (مناصرية): "ليون روش داخل جيش الأمير عبد القادر"، سيرتا، مجلة تاريخية اجتماعية، يصدرها دوريا معهد العلوم الاجتماعية، جامعة قسنطينة، الجزائر، العدد 9/8، عام 1983.

II- باللغة الفرنسية

1- Arnaud L. : « Histoire de l'Ouali Sidi Ahmed el Tidjani, Extrait du Kounache », in R.A n° 5, Année 1851.
2- Benachour Nedjma : « Dire Constantine ou la dernière impression », in Expression, Revue de l'Institut des Langues Étrangères, Université de Constantine, Algérie, Spécial Colloque Malek Haddad, Janvier, 1994.
3- Benbarkat H : « A propos de L'Algérie et ses Populations de J.P Durand et H. Tengour », in Cirta, Revue Historique et Sociologique, Publiée Périodiquement par l'Institut des Sciences Sociales de l'Université de Constantine, n° 89, Année 1983.
4- Brosselard Ch : « Les Inscriptions Arabes de Tlemcen : Mosquée et Tombeau de Sidi el H'alou », in R.A n° 4, Années 1859-1860.
5- Brosselard Ch : » Les Inscriptions Arabes de Tlemcen : Mosquée de Mohamed ben Youcef Snouci », in R.A n° 5, Année 1861.
6- Cherbonneau A : « Inscriptions Arabes », in R.A n° 3, Année 1858.
7- Delpech (Andrien) : « Un Diplôme de Mok'eddem de la Confrérie Religieuse Rahmani », in R.A n° 18, Année 1874.
8- Devoulx : « Les Édifices Religieuse de l'Ancien Alger », in R.A n°10, Année 1866.
9- Devoulx : » Les Édifices Religieux de l'Ancien Alger », in R.A n° 14, Année 1870.

10- Lacheraf (Mostefa) : « La Situation Culturelle et Scolaire en 1830 », in Culture Algérienne dans les Textes, Choix et Présentation par Jean Dejeux, Éditions Published, Paris, France, S.D.
11- Leclerc Ch. « Inscriptions Arabes de Mascara : Mosquée d'Ain Beidha », in R.A n° 4, Années 1859-1860.
12- Rinn (Louis) : « Le Royaume d'Alger sous le dernier Dey », in R.A n° 41, Année 1897.
13- Trumelet le Colonel : « Notes pour Servir à l'Histoire de l'Insurrection dans le Sud de la Province d'Alger en 1864 », in R.A n° 21, Année 1877.
14- Yver (Georges) : « Mémoires de Bouderba », in R.A n° 57, Année 1913.

الموضوعات	الصفحة
المختصرات المستعملة	/
مقدمة	01
مدخل لتاريخ الجزائر الثقافي من العهود القديمة إلى العهد الإسلامي:	06
I- ثقافة البربر القديمة	07
1- اللغة	07
2- المعتقد	08
3- الفن	08
II- الحالة الثقافية للبربر في العهد الفينيقي	09
III- الحالة الثقافية للبربر في العهد الروماني	12
1- يوبا الثاني	13
2- أبوليوس المادوري	14
3- القديس أوغسطين	17
IV- الحالة الثقافية بالجزائر في العهد الاسلامي	21
الجزء الأول: تاريخ الجزائر الثقافي خلال الفترة الحديثة (الفترة العثمانية)	27
I- تراث القرن 15م	28
1- مؤثرات الحياة الثقافية	28
أ- الاضطرابات و القلاقل السياسية	28
ب- الهجرة الأندلسية	30
ح- انتشار التصوف	33
2- العلماء و الأمراء	35
أ- أحمد بن يحي الونشريسي (834 هـ – 914 هـ/1508م)	35
ب- أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم المغيلي المتوفى عام 909 هـ/ 1504م	36

3- الحياة العلمية و الإنتاج الثقافي	39
أ- اللغة و الأدب العربي	39
- أحمد بن أبي القاسم الخلوف (829 هـ -899 هـ/ 1425م-1494م)	39
- محمد بن عبد الرحمان الحوضي المتوفى عام 900 هـ/ 1493م	40
ب- التاريخ و السير	41
- محمد بن عبد الله أبي عبد الجليل التنسي المتوفى عام 899 هـ	41
- أحمد بن حسين بن علي المعروف بابن قنفذ القسنطيني المتوفى عام 810 هـ	42
- عبد الرحمان الثعالبي (785 هـ – 875 هـ/1383م -1479م)	43
ج- التصوف و علم الكلام	43
- أبو زيد عبد الرحمان الثعالبي (786 هـ أو 787 هـ – 1385م/ 875 هـ – 1470م)	43
- محمد بن يوسف السنوسي المتوفى عام 895 هـ	44
- أبو العباس بن زكري التلمساني المتوفى عام 899 هـ أو 900 هـ	45
د- العلوم و المنطق	45
- إبراهيم بن أحمد الثغري التلمساني (المتوفى في أوائل القرن التاسع الهجري)	45
- أبو الفضل محمد المشدالي (821 هـ أو 822 هـ -1417م/ 864 هـ – 1460م)	45
و- القراءات و التفسير	46
- محمد بن عبد الله بن عبد الجليل التنسي المتوفى عام 899 هـ	46
- أحمد بن يحي الونشريسي (834 هـ – 914 هـ)	47
II- المؤسسات الثقافية	48
1- الأوقاف	48
2- المساجد	50

3- الزوايا	52
4- المدارس و المعاهد العليا	57
5- المكتبات	59
III- التصوف في الجزائر خلال العهد العثماني	64
1- الطرق الصوفية و موقف العثمانيين منها	64
- الطريقة الشاذلية 658 هـ (1258م)	64
- الطريقة العيساوية (936 هـ / 1526م)	65
- الطريقة الطيبة (1089 هـ / 1678م)	65
- الطريقة الحنصالية (1114 هـ / 1702م)	66
- الطريقة الكرزازية الأحمدية (1608م)	66
- الطريقة الشيخية (1630م)	67
- الطريقة القادرية (1125 هـ/ 1714)	68
- الطريقة الرحمانية 1794م	69
- الطريقة التيجانية (1813م)	70
- الطريقة الدرقاوية	73
2- سلوك بعض المتصوفة	75
3- الأولياء و الكرامات	78
الجزء الثاني: تاريخ الجزائر الثقافي خلال الفترة المعاصرة (الفترة الاستعمارية الفرنسية)	84
I- الاستعمار الفرنسي للجزائر و الغزو الثقافي	85
1- نشر الجهل و الأمية	85
2- الفرنسة	92

3- التنصير	97
II- التعليم و العلماء	103
1- السياسة التعليمية الفرنسية	103
أ- التعليم العربي الحر	106
ب- التعليم الحكومي الرسمي	115
أولا : التعليم الخاص بالفرنسيين	115
ثانيا: التعليم الخاص بالجزائريين	121
- التعليم العربي	121
- التعليم الفرنسي	121
- التعليم المزدوج	123
2- كبار المعلمين	125
أ- حميدة العمالي 1813-1873م	125
ب- الشيخ عبد الحليم بن سماية 1866م -1933م	126
ت- بوعلي الغوثي	126
ث- الشيخ عبد القادر المجاوي 1848م-1913م	127
ج-عبد المجيد بوجمعة	127
ح-محمد العربي بلايلي	128
3- هجرة العلماء	129
أ- محمد بن محمود ابن العنابي (1725م-1850)	132
ب- المفتي مصطفى ابن الكبابطي (1189 هـ -1277 هـ)	133
ت- حمدان الونيسي 1856-1920م	133
ث- علماء آخرون	134

4- التعليم و حركة التأليف	136
أ- الشيخ أبو القاسم الحفناوي 1852م-1942م	136
ب- الأستاذ الدكتور محمد بن أبي شنب 1869م-1929م	137
ت- أحمد توفيق المدني 1899م-1983م	138
ث- مبارك الميلي 1898م-1945م	139
خاتمـة	142
المصادر و المراجع	147
فهرس الموضوعات.	162